الفصل الأول
في الأدب

obeikandl.com

obeikandl.com

رحلة في الأدب
سكوت فتزجرالد..
الأديب الروائي..تجربة ومعاناة لفنان كبير

الأدب هو الواحة التي نحب ان نستظل بظلالها وننهل من مائها العذب.. ونستريح عندها من وعثاء السفر وعناء الطريق.. واليوم ستكون استراحتنا، استراحة المحارب إن صح القول مع كاتب وأديب فنان تعكس سيرته صورة لمعاناة أصيلة.. في مجال الحياة والأدب.. أو تجربة الحياة التي تترجم إلى أثر أدبي.. وغني عن القول أن من أهم الأمور التي ينبغي أن تحتل اهتماماً خاصاً في ميدان البحث والتأليف هي كتابة السير والتراجم، هذا الفن الذي سبق له ان احتل اهتماماً خاصاً في تاريخنا وتراثنا.. ولكنه – مع ذلك – لم يستقر على أرض صلبة في تاريخنا الفكري والأدبي الحديث بعد.. بينما تفوق فيه علينا الغربيون وإلى أبعاد وآفاق بعيدة.. ولعل مردها بين أشياء كثيرة هو توفر المواد المصدرية الأولية لديهم مثل الأوراق والوثائق والرسائل والتسجيلات والصور والكتابات المختلفة التي يحتفظ بها عادة عن الأديب أو السياسي أو الفنان وكل ذي شخصية مرموقة في أي مجال من مجالات الحياة، التي تكتب عنها السيرة أو الترجمة، بحيث يحتفظ بها عادة عن الأديب أو السياسي أو الفنان وكل ذي شخصية مرموقة في أي مجال من مجالات الحياة، التي تكتب عنها السيرة أو الترجمة، بحيث لا يجد الكاتب أو المؤرخ صعوبة كبيرة – كما نجد نحن في بلادنا – في البحث والتنقيب عن مادة وثائقية وإعلامية وتسجيلية كافية.. الأمر الذي يمنحه حرية كبيرة في التحليل والتعليل وسعة الأفق.. في الكتابة...

واحسب ان ما اطلع عليه كاتب هذه السطور من مادة مكتوبة عن حياة سكوت فتزجرالد شاهد جيد، على توفر الغرب على شخصياتهم يدونون كل ما يتعلق بشخصياتهم.. من كتاباتهم هم.. أو ما كتب عنهم.. فهم يحتفظون عن هذه الشخصية بكل الأوراق والرسائل واليوميات والمذكرات في مكان معين – جامعة برنستون – مما هو منجم للباحث يتجول بين أرجائه ويتعمق في معطياته، ومما هو أيضاً أمر جوهري وأصيل للبحث الجيد والنتاج الأصيل.

وليد عصره:

من هذا المنطلق: وكشاهد ممتاز على الكتابات النضيجة، وثمار البحث والمعاناة الخصبة، نجد كتاب ماثيو بروكولي، استاذ اللغة الإنكليزية في جامعة ساوث كارولينا، والذي عنوانه «نوع من قصة العظمة» الذي هو عن حياة فتزجرالد، والذي هو صورة نموذجية لما ينبغي أن يكتب في فن السيرة: توثيقاً وتنقيباً وبحثاً ودراسة مستقصية متأنية لكل شاردة وواردة، وتتبع مضن لمراحل الحياة المختلفة، وعكوف طويل على المادة المصدرة المتجمعة من المظان المختلفة، يستنطقها ويستفتيها فيما ينبغي كتابته، وما تجيزه هذه المادة، وثم المعايشة الطويلة العميقة للشخصية المكتوب عنها، لإدراك ملامحها والوصول إلى أعماقها، مما هو وليد الفن والخيال والإبداع، بالإضافة إلى ما تقدمه المادة المصدرية.

على أن فتزجرالد، من خلال هذه الدراسة، ومن خلال معاناتنا للكتب التي ألفها، ورواياته بصورة خاصة يبرز لنا في الملامح الرئيسية التالية التي لا تخلو من إثارة. كما أن فيها درساً وعبرة ونموذجاً لمن عانى تجربة الكتابة وعايش الحرف، وعاش له ومن أجله:

إنه وليد عصره، ونتاج زمانه، من العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، عصر التفجر والتفتح والتطور في أميركا، عصر موسيقى الجاز كما يسمى، هذا العصر الذي هو أيضاً عصر الطفرة الإقتصادية العظيمة ثم عصر الإنهيار.. عصر الإزدهار والبهرج والرفاهية، ثم عصر التراجع والبطالة والكساد! في هذا العصر وبين الصعود والهبوط، والتقدم والتراجع، تكون سنوات التكوين، وبدايات الإبداع في حياة كاتب أميركي عظيم.. فهو قد درس في جامعة برنستون، من كبريات الجامعات الأميركية، وفيما بعد يكتب لرئيس هذه الجامعة عنها، وكيف أنها تصنع الرجال، كما يكتب له أن الحياة تتعامل مع الناس بكل قسوة وبلا ضمير! وفي هذه الفترة يكون زواجه من زوجته الشهيرة زيلدا، والتي هي اسطورة في الجمال والذكاء والحيوية. وهنا ينبعث من هذا الزواج نموذج رائع لرجل وامرأة. نموذج يتدفق بالحيوية والحياة، يمثل الشباب في هذه المرحلة من تاريخ أميركا، ويصبح رمزاً له.. فهذا الزواج كانت تميزه العفوية والحيوية والإنطلاق والطلعة المشرقة وليس هذا فقط وإنما أيضاً إن هذا الزواج، قد رزق موهبة فنية، فقد كتبت زيلدا القصة.. كما تجلى إبداع زوجها فتزجرالد في القصة والرواية.. وكان لزيلدا محاولات في المقالة.. وتشارك الطرفان في كتابة بعض القصص المشتركة مما قد

أعطى لحياتهما بعداً أخاذاً آخر.. فقد التقى الشباب والجمال مع الإبداع والإبتكار.

مرض زيلدا:

على أن زيلدا كان لها عملها الخاص.. واهتماماتها الخاصة، فقد عشقت الرقص، ورقص الباليه بصورة خاصة، ونظرت إلى مدرسة الباليه نظرة فيها كثير من المثالية إلى درجة التقديس! «فقد قارنتها بالشمس التي تقع أشعتها على قطعة من الكريستال، او سمفونية عطر، أو أنها اللحن الأتم والأكمل من مؤلفات موسيقي عظيم».

ولكن، حياة هذا الزوج البارعة الرائعة، لا تلبث أن تصاب بنكسة، كأنما قد أصابتهم العين! فتصاب هذه الحيوية الخارقة التي اسمها زيلدا، بمرض نفسي، وتذهب إلى مصحة في سويسرا، بعد أن كانت قد انجبت طفلة من سكوت فتزجرالد، أطلق عليها اسم سكوتي أيضا.. وبالرغم مما أشاعه البعض من أثر لسكوت على مرضها، إلا أن الحقيقة تقول ان زيلدا ظلت إلى آخر أيام حياتها على ولائها لزوجها، كما أن شخصيته أخذت بعدا مركزياً في حياتها.. فهو الذي يقول: «إنني الحقيقة الأعظم في حياة زيلدا». وهو الذي يكتب في مذكراته، تأثراً وأسفاً على مرض زيلدا «الانهيار! زيلدا وأمريكا» جامعا بين كساد أميركا (بعد ١٩٢٩) ومرض زيلدا وواضعا إياهما في مستوى واحد! وهو يقول بصدق انه أعطى لزيلدا – تلك المرأة الفاتنة – كل الشباب والفن والنضارة التي كانت له، بحيث كان استثمارها الاهم والأكبر.

ذلك ان فتزجرالد قضى مع زيلدا ربيع العمر.. ورحل معها إلى أوروبا وزارا معا أجمل ربوعها في فترة ما بين الحربين.. وقد كانا يتوخيان من زيارتهما لأوروبا، الإغتناء الفني والثقافي وارتياد مجالي وربوع الرومنطيقية.. ولعل بين أعظم سني حياة هذا الزوج، حيث كان الشمل مجتمعا والأيام مقبلة والهناء ضافياً وافياً.. هي سنة ١٩٢٥، حيث حل هذا الزوج في باريس واجتمع إلى الأدباء والشعراء والفنانين فيها ومن بين هؤلاء همنجواي وشتاين من أميركا وجيمس جويس من إيرلندة.

وفي هذه الفترة كان ارتياده للمدن الفرنسية العظيمة على البحر المتوسط مدينة كان وعينتبي ونيس وموناكو وغيرها.. وفيها أيضاً كتب أعظم آثاره ورواياته..

على أن شمس حياة فتزجرالد، تميل إلى الكسوف، ويكون هذا في النصف الثاني من الثلاثينات، وفي أواخر أيامه يكون تحوّله إلى هوليوود حيث شغل بكتابة القصص

والسيناريو للأفلام.. من أجل أن يجمع نقودا ليعيش، لكنه لا يشعر برضا حقيقي ، ويعتبر سنوات حياته هناك وابتعاده عن معاناة الكتابة المبدعة، كتابة القصة والرواية، زمناً ضائعاً. حتى إذا عاد لينشغل في كتابة روايته الأخيرة «الحيتان الأخيرة» توفي وهو في شرخ الشباب.. في عام ١٩٤٠.

صداقات ومعارف:

عرف فتزجرالد في حياته عددا مرموقاً من القمم الفنية والقيادات الأدبية، ومن هؤلاء – ممن ظل يحتفظ له باحترام كبير حتى آخر يوم في حياته – ارنست هيمنجواي، الذي اعتقد فتزجرالد بسحره الأدبي ومقدرته الكبيرة على الإبهار. وهو يذكر أنه قضى معه أجمل سنوات العمر ١٩٢٥ – ١٩٢٦ بل لعلها سنوات القمة في حياته كلها. ومنهم أيضاً الكاتبة الأميركية شتاين التي كان بيتها في باريس على ضفاف السين، محجاً للكتاب والفنانين، أميركين وغيرهم، القادمين لباريس عاصمة الفن في هذه الفترة وكل فترة. وقد أعجبت شتاين بعطاء فتزجرالد الأدبي وبوجه خاص أولى رواياته «جاتسبي العظيم».

ومن بين هؤلاء عائلة ارستقراطية التقى بها في منتجعات فرنسا المشهورة هي عائلة «مورفي» التي رمز إليها في بعض كتاباته الروائية، لا سيما وهي العائلة التي جعلت من حياتها فنا من الفن.

وممن عرف فتزجرالد في أخريات أيامه شيلا جراهام التي تعرف إليها في هوليوود والتي كتبت فيما بعد كتابا عن تجربتها مع فتزجرالد.. وهو الذي كان قد تبناها وأخذ بيدها وعلمها عندما كانت في بداياتها في رحلة الكتابة والفن.. وقد قال أنه افتتح لها مدرسة من صف واحد.. مشبعاً في ذلك رغبة في التوجيه والتدريس.. وجاعلا منها بجماليون أخرى.

كتابته وفنه:

كان هدف فتزجرالد، منذ بداية البداية، أن يكون بين كتاب اميركا المرموقين. وقدر له أن يكون، وأن يسجل بين كتابها الخالدين.. وما قصة حياته، في حقيقة الأمر سوى قصة الكتابة المبدعة والتي لا تأتي إلا مع التضحية والعرق والدموع والمعاناة والمكابدة المستمرة.. فهو ككل كاتب قصة ورواية.. يحول تجاربه اليومية والحياتية إلى مادة

للكتابة.. كما تحول النحلة رحيق الأزهار إلى عسل مصفى. وليس هذا فقط وإنما يتحول الأشخاص الذي يمرون في حياته، وفي الغالب، إلى شخوص في رواياته، بعد أن يتم التحوير فيها وصقلها لتلائم التجربة الفنية.. وبعد أن يمر عليها الفن بمسحته الخالدة! والمهم في كل هذا أن التجربة الحياتية، التجربة اليومية هي تجربة مقدسة! وهي النبع الذي لا ينضب لمادته القصصية والروائية يدير حولها الأحداث ومجريات القصة والرواية عموما.. من أجل أن تأتي مادة هذه الروايات وقد اكتست طابع الصدق والأصالة والواقعية والحيوية والحياة.. والتي هي شروط أساسية من شروط الفن الحقيقي..فهو – كما قيل – مثل شكسبير «ما يفعله يقوله» أو أنه مثل شخصية كاراواي في رواية «جاتسبي العظيم» في حالة دائمة من المشاركة والمراقبة في الحياة.. وعلى ما يظهر، فإن شمولية وعمق التجربة الفنية وكثافتها أخذت فتزجرالد معها، بحيث استولت عليه.. بحيث لم يعد في مجمله، أو محصلته سوى قلم يكتب أو قصبة تفكر!

ليس هذا فقط وإنما تكشف الدراسات التي الفت عنه، والأوراق واليوميات التي تركها، انه كان – في كتابته – مخططا نموذجيا وباحثا عظيما، فما يكتبه من روايات هو حصيلة مادة كبيرة قام بجمعها، وصنفها في ملفات حتى إذا استكمل البحث، وضع خريطة تفصيلية لتحرك الشخوص في الرواية، وتوقيت الأحداث بحيث لا تتكرر أو تتداخل، فتفسد السياق. وهكذا تولد الرواية وقد تميزت بهارمونية خاصة يفضي كل حدث إلى الذي يليه بطريقة منطقية متدرجة ومقنعة.. لا تشكو ابتسارا.. ولا نقصا مخل بتركيب الرواية ككل.. فكل شخصية قد رسمت بعناية وتطورت ونمت بمنطقية، وكل حدث قد جاء في موقعه يتفق مع مسيرة الأشخاص وما يتوقع منهم.. هؤلاء الأشخاص الذين قد اختمرت بهم مخيلته وعرفهم وعرف ابعاداً كثيرة في حياتهم من خلال معايشته لهم مادياً وروحياً.. وفعلت ريشته فعلها، فيما بعد، في إضفاء صفة الفن، صفة الخلود.. والإنسانية العامة عليهم.. وهذا جميعه يدخل في حيز الفن العظيم، الذي يتفاوت فيها المتفاوتون ويتنافس المتنافسون.

وفتزجرالد إلى هذا، كاتب قارىء، أخذته قصة الأخوة كارامازوف.. كما أخذت غيره من أبناء البشرية حول العالم، بحيث كان يعود إليها كلما أراد كتابة رواية عظيمة.. يستمد منها وحيا وإلهاما ونفحات إنسانية!

ومن الكتب ذات الطابع الفلسفي، والتي يقول أنه لم يشف من تأثيرها كتاب الفيلسوف الألماني شبنجلر والمسمى باسم «انحطاط الغرب». وكان يحلو له وبخاصة

وهو مستغرق في كتابة رواية معينة أن يعكف على الشاعر اليوناني هوميروس فلا يقرأ غير شعره.. ومن الكتب التي قرأها وشعر بمتعة كبيرة كتاب الأديب والمفكر الإنجليزي هـ.ج. ويلز «خلاصة تاريخ العالم».

ومايهمنا هنا هو أن فتزجرالد ترك لنا عددا من الروايات التي تعتبر، أو يعتبر بعضها على الأقل، بين الأمهات في الأدب الأميركي الحديث. ولعل في طليعة هذه الروايات رواية «جاتسبي العظيم»، التي تعتبر رؤاها ومشاهدها وجوانب الوصف فيها علامات خارقة في الأدب الأميركي الحديث. فهي تحفة فنية بديعة في تصورها لرفاه أميركا في العشرينات من هذا القرن. وبالرغم من أن تاريخها بين مؤلفاته، يأتي مع بواكير بداياته الأدبية إلا أنها ربما اعتبرت الأثر الأهم بين آثاره جميعا.

وروايته الثانية هي «هذا الجانب من الفردوس» التي صور فيها جزءاً من حياته وحياة زوجته، والتي يقول أنه أخذ في كتابتها ثلاثة شهور وفي تخيلها ثلاث دقائق، وفي جمع المادة عنها كل أيام حياته.. وهو ينتهي في هذه الرواية إلى أن الحياة لا جدوى منها! وأن الحياة ليست سوى قبض الريح أو باطل الأباطيل!

ومنها رواية «رائق هو الليل» الذي أخذ عنوانها من بيتين من شعر الإنجليزي كيتس في قصيدته الشهيرة «أغنية إلى بلبل» وهذان البيتان هما:

«رائق هو الليل
أكان الأمر رؤيا أو حلم يقظة
أهل ذهبت الموسيقى؟
هل أنا نائم أم مستيقظ!»

والذي قصد إليه الكاتب في هذه الرواية، هو معالجة موضوع الحياة بين الخير والشر.. وهل تستحق الحياة أن تعاش أو أنها لا تستحق؟! إنها السؤال الكبير الذي يردده كل من مشى على الأرض من لدن آدم إلى آخر إنسان على وجه هذه الأرض: ما معنى الحياة وما جدواها؟ وما حقيقة ما يجري للإنسان فيها وما هو كنهه؟!

أما روايته التي مات عنها وهي لم تكتمل فعنوانها «آخر الحيتان» وهي تصور أمين لحياة هوليوود وما يدور فيها من صراع بين القطط السمان، هذا الصراع الذي لا يرحم!

شيء من آرائه ومعتقداته في الحياة والناس

لقد كان لفتزجرالد آراء معينة في كثير من جوانب الحياة، تلمس هذا واضحا في تراثه الأدبي وأعماله الروائية.. ورسائله وأحاديثه.. لكن ما يحتمله المقام هنا، أن نشير لبعض آرائه في الفكر والمال والعمل.. فهو يعتبر أن مثالية المفكرين الكبار والفلاسفة مثل روسو وماركس وتولستوي قد عملت في مجال الطعام الذي نأكله، والأشياء التي نفكر فيها ونقوم بعملها، أكثر مما عملته كل ملايين روزفلت وروكفلر...

وبالنسبة للمال فهو يرى أن الثروة المطلقة وبلا حدود تفسد أيضاً فساداً مطلقاً وبلا حدود! ولو أنه من ناحية أخرى اعتقد أن من حسنات المال أنه يشتري لك رغد العيش ويمنحك وقتا أطول للكتابة، على أنه لم يكن يؤمن بالمال كغاية في حد ذاتها، ولم يكن الأغنياء ليبهرونه، إلا إذا توفر لهم إلى جانب المال ما يكسب حياتهم معنى ومغزى مما يجعل لهم ميزة معينة. ولقد اعتقد أن العمل، والعمل وحده، هو شرف الإنسان ومصدر كرامته. وهو يرى أن وسائل الخلاص، وأدوات الإنقاذ ليست سوى الفن والعمل الإبداعي. كما أنه آمن أن غاية الحياة لا ينبغي أن تكون توفير «السعادة والسرور» ولكن تحقيق الإحساس الأعمق بالرضا وراحة البال التي تأتي مع النضال والمعاناة، والكد والتعب. وهو يتحدث عن نفسه فيقول؛ أن الحياة لم تمنحه عطاءها بسهولة ويسر، وأن الذي حصل عليه منها لم يأت إلا لأنه سلك الطريق الجبلية، والطريق الطويلة الشاقة.. والحافلة بالتحديات والمصاعب.

ما تبقى من فتزجرلد

في عام ١٩٥١ جرى لفتزجرالد عملية احياء لم تلبث أن تحولت إلى عملية بعث كاملة. فهو الآن يعتبر من أعظم كتاب العالم وكتابه «جاتسبي العظيم» هو من مقتنيات كل صف من صفوف الطلاب في أمريكا، ويباع منه سنوياً ٣٠٠ ألف نسخة في الولايات المتحدة، وايراد ورثته من كتبه ملايين الدولارات. لقد كان الذي يرجوه فتزجرالد هو أن يحسب بين كتاب العالم العظماء.. وقد تحقق له هذا تماماً بعد مماته أكثر مما تحقق في حياته...

لقد توصل فتزجرالد أخيراً لماكان يرجوه ويعمل له دائماً.. لقد توصل إلى الخلود.. وعن الطريق الذي آمن به: الفن العظيم والأدب الخالد.

طه حسين كما تصوّره زوجته
«معك» سيرة غنية للانسان وكاتب كبير

عندما توفي طه حسين (١٩٧٣) أصيبت شريكة حياته سوزان طه حسين بصدمة كبيرة لغيابه... فهذا العملاق الذي يملأ حياتها اختفى، مرّة واحدة، من هذه الحياة.. وهنا أحسّت بعظم الفرق بين الحضور والغياب.. بين الحياة والموت... ولعلّه من تأثير هذه الصدمة الحياتية.. الصدمة الوجودية.. ولد هذا الكتاب «معك» باللغة الفرنسية، والذي يتميز في لهجته بالصدق والاخلاص.. وفي اسلوبه بالعذوبة والجمال...

فالكتاب، في حقيقة الأمر، يطرح قضية حياتية صميمية، قضية الرباط المقدس بين الرجل والمرأة، وهو نموذج على السكن والمودة والرحمة، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.. وهو إلى هذا يوضح أبعاداً وجوانب كثيرة في حياة طه حسين: العالم والأديب والكاتب والوزير.. وبايجاز، الشخصية المرموقة في تاريخ مصر الحديث الأدبي والسياسي، ومن منظور الزوجة المخلصة إلى درجة التفاني.. الزوجة الرفيق والصديق والصاحب والمعين.. بل والعين الراعية واليد الحانية... فالصورة المعروفة لطه حسين وهو الكفيف الذي لا يرى، لا يستند في أغلب وقته، ومعظم حاله إلا على يد معينة، هي يد زوجته الفرنسية سوزان: «انني بدونك أشعر أني اعمى حقاً، أما وأنا معك، فإنني أتوصل إلى الشعور بكل شيء، وإلى أن امتزج بكل الأشياء»..

والكتاب، الذي أخذ شكل المذكرات، ذو قيمة فنية كبيرة، قيمة توثيقية، نابعة من أن الكاتبة تسجل ذكرياتها على شكل يوميات، كما أنها تستشهد من رسائل زوجها إليها ورسائلها إليه، وتحس وهي تتلوها كأنها أمام سفر نفيس أو كتاب له قدسية كبيرة: «أغلق لفة الرسائل التي ربما تناولتها غداً من جديد، أشعر أني نشوى، خارج الزمن الحاضر وخارج العالم» من هنا، فهو من هذه الناحية، ذو قيمة كبيرة في كونه يكشف خلفيات الأحداث والوقائع في حياة طه حسين، ويوثق للأبحاث والدراسات والانجازات الأدبية، كيف ومتى ولدت.. وعلى سبيل المثال، فإن الكاتبة تشير إلى كتابة طه حسين لاطروحة الدكتوراه وسهرها الأيام والليالي معه، من أجل ذلك. فهي تشير إلى كتاب الأيام، وكتاب علي وبنوه، وكتاب أديب ورواية دعاء الكروان. وعندما يكون طه حسين منخرطاً.. مستغرقاً في كتابه دعاء الكروان يكتب لها: «ها هو طيري العزيز الذي

يملأ الفضاء بغنائه الفرح منذ بدأت الكتابة لك، ان ذلك يغمرني بالفرح».

وهي إلى هذا تكشف توجهات، وتبرز نشاطات ومنطلقات... وتحلل نفسيات لشخصيات كان لها دور في حياة صاحب السيرة.. وكل هذه القضايا، بما لا شك فيه، تعتبر منجماً للباحثين والدارسين يستمدون منها مادتهم الأولية، وتشير إليهم بمؤشرات ترشدهم إلى تبيّن معالم الطريق عند دراسة أدب طه حسين، ومن هم مثله...

ولقد اتبعت الكاتبة في تقنية الكتابة اسلوباً يتناسب مع موضوعها.. كما يتناسب مع حالتها النفسية عندما كتبت.. فهي تبدأ من القريب وتذهب إلى البعيد.. تبدأ من غياب طه حسين.. ثم تعود إلى البدايات إلى الجذور.. في علاقتها به.. في عملية «فلاش باك» معروفة في عالم الكتابة والفن.. وبهذا فهي كأنما تريد أن تنتقل أن تفر من جحيم البعد الراهن والواقع المؤلم، بالذهاب إلى الماضي بجماله ورومانسيته وعذوبته وجلاله وازدهاره.. وكل ما فيه من تجارب غنية.. ومعاناة حيوية.. وعلى هذا فهي تراوح طوال الوقت بين الماضي والحاضر والأمس واليوم واليوم والأمس.. باسلوب يجعلك تعيش معها حالتها بين الفقدان والوجدان.. والحضور والغياب!! والحزن والتجمل!! وتظل هذه النغمة في المراوحة بين الظلال والنور، بين الفردوس المفقود والواقع الحزين.. هي النغمة السائدة في الكتاب من البداية إلى النهاية.. «آه يا صغيري! يا صغيري الذي لن أعثر عليه، إذا ما دفعت بابا ما.. نعم سيكون ثمة باب آخر يوماً ما، فهل ستكون وراءه كي تستقبلني.»

والكاتبة إلى هذا تكتب بلغة فرنسية، وتفكر بهذه اللغة، وخلفياتها ككاتبة مرتبطة بجذورها وتربيتها وثقافتها الفرنسية، ولعلّ هذا ما يمنح الكتاب شيئاً أكثر، وقسطاً أكبرمن الجاذبية، ان لم نقل الطرافة والنكهة الحضارية الغربية.. والتي تجعل من طه حسين، وعندما تطبق عليه المقاييس الحضارية والانسانية، نموذجاً انسانياً وحضارياً وثقافياً يليق بكل الناس والثقافات.. نموذجاً انسانياً عالمياً.. تنبع عالميته من أصالته المحلية.. والوطنية المصرية.. والكاتبة بهذا تخدم الثقافة العربية بتقديم نموذج ممتاز منها، تعرضه بهذا الاسلوب المتعاطف، بل تكسوه بهذه الشحنة الانسانية الهائلة، النابعة من الاعجاب الكبير والتقدير العظيم.. فضلاً عما هنالك من شمولية واحاطة بالجوانب البسيطة، والعظيمة في بساطتها في حياة طه حسين، وصولاً إلى أدق الدقائق إلى أجل الأمور وأكبرها..

على هذه الخلفية من الأهمية العامة والفنية، وبهذا الاسلوب الفني، عالجت السيرة عدة موضوعات في حياة طه حسين:

● تدور السيرة بصورة رئيسية ومحورية حول طه حسين، وهي في حقيقة الحال تصوّر نفسيته، بل تغوص في نفسية طه حسين، غوص العارف، المميز والمدقق، فهي مثلاً، لا تقع في التعميم الذي يوحدّ عادة بين طه حسين وأبي العلاء.. فهي عندما تتحدث عنهما.. وتحاول المقارنة بينهما، تقول لنا أن طه حسين ليس أبا علاء آخر.. فبالرغم من أنهماكانا انسانان غارقين في الليل نفسه، انسانان يملكان وضوحاً خارقاً وموهبة في التعبير استثنائية، وكبرياء شامخة وجرأة.. لكن أبا العلاء «لم يقل هيا إلى النضال، إلى الحنان، أما طه فقد أراد أن يحيا بجرأة مستقيماً متغيراً في داخله بحيث لم يكن هنالك الانطباع بأنه أعمى»..

وانت ان رحت تبحث عن مفتاح تفسر به شخصية طه حسين، وتحكم على هذه الشخصية وتفهمها وتلخصها.. ان صح القول، لا تجد أفضل من صفة العالم الأديب مفتاحاً لهذه الشخصية، وهي تعتبر معاناة العلم النشاط المثالي لديه: «لم يكن طه سعيداً جداً إلا عندما يمارس نشاطه الغالي عليه (العمل العلمي والكتابة)». بل انك لتلمس أن سرّ حب زوجته له، ومصدر إعجابها به انما هو عائد إلى مقدرته على الابداع والخلق... والانجاز.. تلمس هذا من وصفها للحظات الحب الخالص المتدفق نحوه.. عندما يقدم إليها أحد آثاره: «ولكن كنت تعرف أنت ما كنت اعانيه عندما كنت تحمل لي واحداً من كتبك صدر أخيراً. آه! لم يكن ما أعانيه زهواً أولاً – أسألك العفو – كان مسرّة مشروعه. لا! إذ ان ما كان يقلقني – ولا يزال يقلقني أكثر كلما تذكرت ذلك – هو الحركة التي كنت تمد لي بها يدك بالكتاب، كانت حركة مرتبكة تقريباً، كما لو أنك تعتذر، كما لو أنك كنت تقدم لي شيئاً ضئيلاً جداً، في حين كنت تمنحني أفضل ما لديك، وتمنحني ما كان الآخرون ينتظرونه بفارغ الصبر! آه ما أكثر تواضعك، وما أشد ثبات هذا التواضع، ما أكثر ما أحببتك، وأحبك بسبب هذا!! ولم أعرف كيف أعبر لك عن هذا الحب» وعندما يمتحن لأسباب تتعلق بمنطلقاته وتوجهاته وتفسيراته يضحي بالسياسة ولكنه لا يضحي بالعلم.. «بانتظار رد الملك أنني انتويت أن أتخلى عن السياسة وسأكرس نفسي لعملي كعالم وأستاذاً تاركاً الميدان للثرثارين والوصوليين».

ومع ذلك فإن طه بفضل ما أوتي من طاقة كبيرة ونشاط حياتي واسع يرتقي بالمناصب التي يسهم في الوصول إليها اجتهاده العملي الكبير، ونبوغه الأدبي الرصين،

حتى يصبح وزيراً للمعارف، وهنا يكون انجازه العظيم خدمة للثقافة والمعرفة. ففي عهده تحققت مجانية التعليم التي «سببت في مصر هيجاناً» وقد سرّ طه حسين عندما نقل له كلمة تاجر بسيط لامرأته «فلنأت بأولاد يا امرأة، فالآن يسعنا أن نعلمهم»... وبجهده تم افتتاح عدد من المدارس التي تتسع لهذا العدد الكبير من أطفال مصر، حتى كتب أحدهم في مجلة المصوّر: «ان رؤية طه حسين في وزراته هي رؤية قائد على رأس جيوشه»

● وتكشف السيرة بجاذبية وتشويق كبيرين، البلاد التي زراها طه حسين، فتصف لنا هذه الزيارات، حيث يتفتق يراعها عن فن عظيم ترسم فيه لوحات ولوحات للبلاد التي زيرت، والتي تأتي في طليعتها ايطاليا، وتتحدث هنا عن خليج نابولي، وعن روما في الليل وعن حدائق الفاتيكان وعن البندقية والجندول فيها وعن توسكانا تقول: «تلك هي الأصوات التي كنا نسمعها في الليل: مياه الينابيع، وجزالة باخ العاطفية والمدى الشاسع لايقاعات براهمز، ولكل ما يمكن لنجوم ليلة صيف في توسكانا أن تضيفه إلينا».. وهي تقف مبهورة نشوى.. وتكتب مصورة هذا الانبهار والانتشاء وتصف المدن الايطالية في صورة بانورامية وشريط متوصل! «مدن ايطالية آجر وردى يبلغ من العمر ستة أو تسعة قرون ممتدة على شواطيء الأنهار والغدران، مطلة على البحر متشبثة بالهضاب المظللة على قمم جبل الأبنين...» ثم تضيف «لا أدري بأي معجزة كان يبقى دوماً البرج القديم أو الجسر القديم أو الكنيسة القديمة أو المركب القديم في المكان الذي يجب أن يكون فيه، وبمعجزة أخرى، فإنك تلتقط في المشهد الذي - وقفت فيه - خطوطاً هي من الكمال بحيث لا يستطيع أي رسام مهما حاول أن يتخيلها».

● وتتحدث السيرة عن الشخصيات الصديقة والمعارف لطه حسين في مصر وخارجها.. أما في مصر فالسيرة تدركها في عهد ذهبي من عهودها، في الثلاثينات والأربعينات بصورة خاصّة، وعلى جبهة الأدب والعلم والفكر بصورة أكثر خصوصية: فالسيرة تزدان بالحديث عن شخصيات معينة: أحمد لطفي السيد الفيلسوف: «صورة طبق الأصل من الفلاسفة والعلماء الأقدمين»، وعبد العزيز باشا فهمي الشخصية الساحرة المؤثرة.. والذي يعتبر طه حسين عالم مصر: «ان مصر مدينة لك وأنت معلمي» وعلي باشا ابراهيم الذي «كان جراحاً شهيراً كماكان أيضاً انساناً حقيقياً لا يخشى الحياة، كان مرحاً وكنا سعداء حين كنا بصحبته».

لقد أدرك طه حسين، كما أدركت معه زوجته سوزان، هذه الحقيقة الخصبة الغنية في تاريخ مصر الثقافي والابداعي بوجه عام، عهد الأدباء والعلماء العمالقة: عباس

محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات وعبد القادر المازني والدكتور علي مصطفى مشرفة وآخرون.. وآخرون.. حقبة ارتويا منها، وارتوت منهما... أضافت إليهم وأضافا إليها.. وتجيء السيرة لتخلد بعضاً من هذه التجربة الحيوية على وجه.. يجعلك تدعو بالسقيا لتلك الأيام الجميلة التي مرّت!

ولم يقتصر طه حسين على الصداقات المصرية أو العربية، بل أنه مدّ جسوره إلى كثير من العلماء والأدباء في كل مكان من العالم وبخاصة أوروبا. وفي حقيقة الأمر لقد شكل طه حسين ما يشبه الأكاديمية غير المرئية مع كثير من الأدباء والعلماء في العالم.. من مثل ماسينيون وهيربو وجاك بيرك وجاريتا جوميز وهيلين كيلر وله مع كل منهم قصة وحديث ذو شجون..

● وفي السيرة محطات حميمة أخرى تصور أبعاداً أخرى لشخصية طه حسين، فهي مثلاً تتحدث عن طه الوالد وولديه أمينة ومؤنس اللذين يربيهما تربية ديمقراطية ويناقش معهم الرأي نداً لند.. والسيرة تسير معهما وبهما خطوة خطوة حتى يبلغا أشدهما ويتزوجا بعد أن يتعلما من التعليم أفضله.. وتتزوج أمينة الدبلوماسي المعروف الدكتور الزيات ويتزوج مؤنس ليلى حفيدة أحمد شوقي.. ويتم بهذا الزواج السعيد التزواج بين الشعر والأدب حتى أن موظفاً في السفارة المصرية بباريس ليقول: «ان يكون معي في سيارتي ابن طه حسين وحفيدة أحمد شوقي.. أعتقد أني في حلم!»

★ ★ ★

لقد صوّرت السيرة كل هذه الجوانب.. وأكثر منها.. لكنها لا تغادرنا بدون أن تستشهد برسالة من طه حسين إليها كتبها في وقت مبكر مبكر... رسالة تصوّر هذه الرابطة المقدسة بين زوج وزوجة.. بحيث جعلت هذه السيرة الغنية انشودة في محرابها.. هذه الرابطة التي تتميز بالرقي.. والسمّو.. إلى درجة الالتحام الكياني الكامل في ظلال من الخلود الذي تفرضه قدسية هذه الرابطة وعظمتها.. ولعلّ هذا ما تطمح له أي علاقة دائمة أو خالدة:

«ابقي لماذا تذهبي، سواء خرجت أو لم أخرج، أحملك فيّ، أحبك، أبقى أحبك، أحبك. لن أقول وداعاً، فأنا أملكك وسأملكك دوماً، ابقي يا حُبيّ» هكذا تستشهد الكاتبة على علاقة عظيمة عظيمة، برسالة كتبها لها زوجها المحب منذ أربعة وخمسين

سنة.. وفي الرسالة شحنة تعبيرية غنية عن التفسير والتوضيح.. فكما يقول الشاعر الفرنسي فكتور هوغو: لا تفسر فإن التفسير يذهب بطرافة الموضوع.. ومع هذا، ومما لا شك فإن في الرسالة لصاحبة السيرة عزاء وأي عزاء.. كما أن فيها للانسان، أي انسان، يبتلى بفقد عزيز عليه، عزاء وأي عزاء كذلك!!

obeikandl.com

ثلاثة أسابيع في أكتوبر

«ثلاثة أسابيع في اكتوبر» هو اسم لرواية ليائيل دايان، ابنة موشي دايان، والذي لا يحتاج إلى تعريف. تعالج هذه الرواية، موضوع حرب اكتوبر.. هذه الحرب التي تصفها الكاتبة في مقدمة الرواية، كما وصفت حرب غزو لبنان ١٩٨٢، بالزلزال أو الكارثة.

والقاريء لهذه الرواية يستطيع أن يدرك لماذا كانت هذه الحرب زلزالاً أو كارثة، عندما يتأمل الرموز والأجواء التي تسود هذه الرواية بوجه عام:

تجري أحداث الرواية في مستشفى للحرب أقيم بالقرب من تل أبيب، واختيار المستشفى مسرحاً لأحداث الرواية له مغزى عميق. إذ أن الكاتبة تريد أن تقول لنا، أن اسرائيل انما هي بمثابة مستشفى كبير! وقلب هذا المستشفى الكبير أو مركزه هو عنبر المصابين بالحروق من جراء الحرب! وشخوص الرواية في مجملهم يعانون من مشكلات الخوف والقلق والأسى. فأماليا التي هي الشخصية الرئيسية في الرواية ممرضة وجندية احتياط تقوم بالخدمة الطبية كواجب من المجهود الحربي وهي تحس أثناء تأدية واجبها بألم كبير لا تستطيع التعبير عنه مرات كثيرة: « أتمنى لو تفيض عيناي بالدموع هذه الأيام» وهي أمرأة متزوجة ولديها زوج يدعى إلى الخدمة العسكرية، ويتركها، مع طفلين، ولكنها كأية ربة بيت اسرائيلية لا تجد الهدوء العائلي، لا تنعم بالحياة البيتية الهادئة المستقرة.

كما أن أحد المصابين بحروق من أثار المعركة، يشعر بهول المصيبة عندما يكتشف أن وجهه لم يعد كما كان! وأنه محتار كيف سيقابل خطيبته وكيف يشق طريقه في الحياة من جديد، بالرغم من الوعود التخديرية من ادارة المستشفى أنهم سيجرون له عمليات التجميل المطلوبة!

وشخصية ثالثة، لعلها تعبر عن الغامض والمجهول في الكيان الاسرائيلي، هي شخصية الرقم (٧)، الذي ذهبت الحرب بكل علاماته الفارقة، حتى بات من الاستحالة التعرف عليه، كما أن اسمه لا يرد على شاشات الحاسب الآلي، كأنه كيان قدم من عالم آخر، وهذا ان عبر عن شيء فانما يعبر عن حالة الضياع الرهيبة، التي تضمحل فيها شخصية الناس أمام آلة الحرب، وأمام المعطيات المأساوية التي يزج فيها الكيان الاسرائيلي

بأعضائه في أتون المجهول!

وشخصية الزوج «دانيال» شخصية أخرى، تخرج من حرب، لتدخل في حرب أخرى، وهو أيضاً يعاني من شوق للعائلة والهدوء بعيداً عن آلة الحرب التي لا ترحم. وهو ينتهي أثناء المعركة إلى المستشفى الذي تعمل به زوجته!

أجل، ان المستشفى الذي هذه هي شخوصه هو رمز للمجتمع الاسرائيلي الأكبر، هذا المجتمع الذي يجتر ذاته، وتاريخه ويحفر عميقاً في ضميره الجماعي من أجل مواصلة المشروع الصهيوني، بسادية وعدوانية عز نظيرها في كل العصور، تقول احدى شخصيات الرواية وهي أمريكية وزوجة لمقاتل اسرائيلي يترك أميركا ليعود للقتال في حرب اكتوبر، دفاعاً عن اسرائيل، تقول:

«انكم – أي الاسرائيليون – مشغولون بشيء لا يعني إلا القليل بالنسبة لي. انه المصير. ان ذلك مثل الاستمناء. انكم تحللون أنفسكم، وتعيدون معيشة التاريخ، وتتحدثون بألفاظ كبيرة عن المصير والهوية وتحفرون في أرواحكم الجماعية في كل لحظة من النهار. وقد يكون هذا بطولياً يستحق الثناء وشريفاً، ولكنه بالنسبة لي مرعب، ولا انساني» (الرواية ص ٩٤).

ولعل هذا القول، هو رجع لحقيقة النفسية الاسرائيلية بوجه عام، هذه النفسية التي اكتوت من نار الحرب، المستمرة، كاللعنة! والتي لا يظهر أن لها أية نهاية لا في القريب ولا في البعيد. ومن هنا فإنها وهي المتورطة حتى الأعماق بهذه المقولة الجهنمية، أصبحت لا تؤمن بأهمية التوسع والاستيلاء على الأرض ان كان الثمن هو هذه الأرواح التي تسفك دماؤها كل بضع سنوات. تقول بطلة الرواية «ان المكسب يقاس بالأميال المربعة، ولكن الخسارة هي بالأرواح، لقد كانت الخسارة أكبر من المكاسب». ولعل هذا القول يكتسب مصداقية من شعور اليهود عموماً والاسرائيليين بصورة خاصة بما يمكن أن نسميه «عقدة الأقلية» أو «النقص في العدد». والشخصية الرئيسية في الرواية الممرضة العسكرية «أماليا» نفسها، لا تريد لأبنائها أن يكرهوا، تلك الكراهية التي تأتي بالحرب والعدوان كما أنها لا تؤمن بجدوى الحرب. وتقول في مناسبة ثالثة في الرواية أن الحرب حدث رهيب! وفي مناسبة أخرى تقول «لقد زعمنا أننا انتصرنا، ولكنني لم أشعر بذلك» (ص ١١٠/ الرواية).. وتتساءل أيضاً هل أطفال وزجات القتلى يشعرون أن الحرب تستحق موت الآباء والأزواج.

وفي حقيقة الأمر، ان القارئ لهذه الرواية يشعر أنه يقرأ مرثاة كبيرة على قبور الجنود الاسرائيليين الذين وقعو صرعى حرب اكتوبر، كما أنها ادانة شديدة لهذه الحرب وويلاتها. وتستطرد الكاتبة لتقول لنا أن المجتمع الاسرائيلي بمجمله، برسم الحرب، أوبرسم الموت.. وهي تقول على لسان الاميركية التي أشرنا إليها أعلاه مخاطبة البطلة: «أن لديكم عقلية الانتظار... انكم لا تعيشون الحياة، ولكنكم تنتظرون فقط!».

ويغلب الحزن والبكاء على الرواية، في فصول كثيرة، حتى ليصبح التجريد فيها أو لنقل اللوحة التجريدية، صورة الموت، والأعضاء المبتورة، والوجوه المشوهة، والصدور والبطون المحروقة!

ويائيل دايان الكاتبة - إلى ذلك أيضاً - مؤرخة عسكرية، غطت أخبار حرب ١٩٦٧ واشتهرت بذلك، وراسلت كبريات الصحف الأجنبية والاسرائيلية، كما أنها عانت حرب اكتوبر ١٩٧٣، وهي سليلة أسرة تقدس الحرب، وتؤمن بها وسيلة للتوسع والاستيطان والاغتصاب.. ومن هنا فإنها تصف حرب اكتوبر، من أكثر من جانب، تصف الطائرات والصواريخ والدبابات وتقربها في المنظور حتى لتكاد تحس أنك في ساحة المعركة فعلاً؛ تتحدث عن العبور المصري، وكذب الدعاية الاسرائيلية في محاولة نفيه، كما أنها تتحدث عن ثغرة الدفرسوار، وتحدثنا عن الهاربين الاسرائيليين من أرض المعركة، كما أنها تحدثنا عن المقاومة الشعبية المجيدة في مدينة السويس، تلك المقاومة التي تجعل من السويس كما يورد أحد شخوص الرواية «دانيال»، أتوناً حارقاً! ومع هذا ومع كل الويلات ومحاولة ادانة الحرب على لسان الكاتبة إلا أنها تريد أن تفهمنا أن الخدمة العسكرية واجب مقدس يتهافت الجميع لتأديته رجالاً ونساء، ويأتون من أجله من كل طرف من أطراف الأرض، يلبون نداءه.. وهم يعلمون أنهم يساقون إلى حتفهم! غاية الأمر أن هذه الرواية وثيقة صادقة إلى حد ليس بالقليل في تصوير حرب اكتوبر باسلوب روائي، ولعل أهم ما فيها هو الشعور بان الاسرائيليين عند أول صدمة حقيقية لهم، بدأوا يعيدون النظر! ولعله من هنا جاء على لسان البطلة قولها «ان هذه الحرب يجب أن تكون الحرب الأخيرة!». ولعل هذا ما حققته لهم معاهدات السلام التي لحقت بحرب اكتوبر.. وما كان ينبغي لها أن تفعل حكماً بما نستطلعه من قراءة هذه الروايات والتي هي معبرة وممثلة لوجهة نظر قطاع كبير من الاسرائيليين، ناهيك أن كاتبتها هي يائيل دايان التي عرفت بأنها من كبار الصقور في اسرائيل.

ليس من المبالغة في شيء القول أن الكيان الاسرائيلي في جوهره، وقد أقيم على

باطل، نمر من ورق. وأن الذي يعريه ويضع فيه النقاط على الحروف، ويصل بالأشياء إلى غاياتها وقرارها هو حرب حقيقية ومستمرة تجعل مثل هذه الأصوات ترتفع لتضع حداً للقوة الغاشمة التي صنعت الاسطورة الاسرائيلية وما هي بذلك لو كنا فاعلين!

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا أيضاً، هل كانت هذه الحرب آخر الحروب، أو أنها ستكون؟! الجواب الذي يقفز إلى الذهن أوتوماتيكياً : لا. فحرب ١٩٨٢ وغزو لبنان والتهديد بالحرب، حتى إلى مصر، التي عقدت معها اسرائيل معاهدات السلام لا يزال وارداً، تقول بطلة الرواية: «ان لدي شكوكاً عن قوتنا وشكوكاً عن انتصارنا، وعن مستقبلنا وعقلنا» ولكن على ما يبدو أن هذه الشكوك انما هي وليدة البؤس والتعاسة التي جلبتها حرب اكتوبر التي تتحدث عنها الرواية، ولكن ما أن تمضي الأيام وتندمل الجروح، حتى تقرع أجراس الحرب من جديد هكذا علمتنا المجريات السابقة للحرب: حرب ١٩٤٨، وحرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، وحرب ١٩٧٣، وحرب ١٩٨٢.

ومن هنا فإننا نعتقد أن لا علاج لهذه النزعة الشريرة في العدوان، وعلاج الأمور بسلاح الموت، إلا كسر هذه النزعة والأداة وعلاج الأمور بسلاح الموت، مرة واحدة وإلى الأبد.. حقاً أنه لا علاج للحرب، إلا بسلام يشرق على المنطقة، ويقضي فيه على أدوات التوسع والدمار والقتل مرة واحدة وإلا الأبد... ففي النهاية لا يصح إلا الصحيح... فالاسرائيليون الذين وقعوا في مصيدة العنف القاتل، لا يمكن أن يداووا إلا بعنف مقابل، تماماً كما هو الدواء بالصدمة لبعض الأمراض النفسية المستعصية. والعرب تقول «آخر الدواء الكي».

لحظات للحزن: ورقة خاصة من أوراق الحزن الفلسطينية العامة

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل!

أجل! دعونا نقف ونستوقف نبكي ونستبكي.. من ذكرى حبيب ومنزل!! مثلما فعل شاعرنا امرؤ القيس.. فحالنا أدعى من حاله للوقوف والبكاء من ذكرى الأحبة والمنازل! أما الحبيب، وسيدة الأحبة، فهي والدتي التي مضى على وفاتها رحمها الله، أربعون يوماً. وأما المنزل فهو بلدتي «طوباس» من أعمال نابلس في الوطن المحتل.. والتي تقدم هذه الأيام الشهيد تلو الشهيد.. ويأتيك بالأخبار عنها وعن مثيلاتها، كل يوم، من لم تزود! من هنا فإن حزني حزن مركب.. حزن على الأهل.. وحزن على الوطن! ولا تظهر لوعة هذا الحزن إلا عندما تعلم بوفاة عزيز عليك! وتقف حائراً ولا تدري ماذا تصنع؟! وتزداد الحسرة أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً!! من قبل ومن بعد الوفاة.. فلا وداع.. ولا عزاء!! بل لا تملك إلا أن تنطوي على جرحك.. ويذهب هو بسلام الى ربه.. مخلفاً إياك وقد امتلأت حزناً كبيراً. وليس إلى سبيل إلى الخروج منه بسهولة وإلى وقت قد يطول!

لقد كانت والدتي رحمها الله، ورضى عنها وتقبلها قبولاً حسناً، كياناً كبيراً في حياتي. منها أخذت التوجه نحو العلم والتعلم. واذكر كم كانت تشعر بسعادة عندما تعلم أني نجحت بتفوق، في بواكير حياتي الدراسية.. واستمر هذا حالها معي طوال حياتي الدراسية حتى إذا تخرجت وحصلت على شهادة الدكتواره – واعذروني هنا ان أتحدث عن شيء يخصني، فما نفسي أقصد وانما تبيان فضل والدتي علي والقاء بعض الضوء على دورها الكبير في حياتي – كان تعليقها على ذلك بالقول، أن ذلك ليس بمستغرب! فإنني عندما كنت أعطي علياً مصروفه، وهو لم يزل غلاماً أو يافعاً، قروشاً قليلة، كان يحتفظ بها ويدخر فوقها لتكفيه لشراء كتاب. لقد كانت على قلة محصولها الثقافي، تشعر شعوراً غريزياً بأهمية العلم، ومن هنا كان انجازها الأكبر مع – والدي رحمه الله – هو استثمارها في هذه الناحية في أبنائها جميعاً..

ليس هذا هو كل الاضافة التي أضافتها، سيدة الأحبة، في حياتي، لقد أعطتني ما هو أهم وأكثر من ذلك، لقد تأثرت حياتي بتلك الكمية الهائلة من الحنان. لقد كانت تلك

السيدة الطاهرة، رحمها الله، ينبوع حنان بكل ما يعنيه هذا القول من معنى! فهي تنبض حناناً.. ووجهها السمح يفيض حناناً، ويداها الناعمتان الرقيقتان ينبضان حناناً.. ومن هذا الفيض الكبير شربت.. ومن هذا الغذاء المشبع غذيت حتى انتشيت!!

ولقد كان رضا والدتي بمثابة سور منيع يحميني ضد عوادي الزمن ومصاعب الحياة. ولقد كان دعاؤها لي، بالتوفيق والتقدم والازدهار، زاداً عظيماً لي في رحلتي عبر هذه الحياة، المتعرجة الأبعاد، المختلفة المقادير، التي تقبل أحياناً، وتدبر أحياناً أخرى.. وكان وجود الوالدة في خلفية الصورة، ترعاني وتعني بي، كان نعم العزاء، ونعم السلوى، ونعم المعين. ومن أدركته العناية لم تضره الغواية! وكل امريء هو بين قبض وبسط. وما شعرت يوماً بقبض، إلا توقعت بعده البسط. فرضا الوالدين، الذي هو رضا الله مجسداً، صمام أمان، وشحنة سكينة، ومولّد روح وريحان! ولقد كان الدعاء لي، شأن كل الأمهات البارات، نغماً سائداً في سيمفونية حياتها، كأنما خلقت، وقد رسم على بؤرة شعورها أن تدعو لي، ولعلّ اغترابي، وكثرة انتقالي وغيابي عنها، هو السبب الأهم وراء إيثاري بهذا الفضل العظيم! لقد أسرّت لي يوماً، رحمها الله، وكنت قد سافرت اطلب العلم في مصر، ومن ثم عدت؛ هل تعلم أنك الأحب لي بين أبنائي وبناتي، قلت لها وبشغف عظيم ولماذا أيتها الحبيبة! يا رعاك الله! قالت لأنك بينهم الذي تغترب عني أكثر.. ولذلك فأنا في انتظار طويل حتى تكتحل عيناي برؤيتك.. سبب آخر: أنك بينهم الأول الذي يرحل لتلقي العلم، وهذا مصدر فخر لي.. وكل أم بأبنائها فخورة!

ومع هذا، فلم تكن تغمدها الله بواسع فضله وكرمه، تغمرني بكل هذا الفيض، على مكانتي، – ومكانة أبنائها وبناتها الآخرين لديها – لوحدي، بل أنني لأشهد أنها كانت سيدة بارّة بالناس أجمعين: بالأقربين «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» والجيران والأصهار والأنسباء وكل ذي حاجة. وكان الجميع، حتى بعد أن توفي والدي، واختلف الحال عليها، يعتبرونها الواحة التي إليها يلجأون، والشجرة الوارفة الظلال التي بها يستظلون.. وهي تحاول – ما وسعها – أن تقضي لكل حاجته، وتلبي لكل ذي طلب مطلبه. وان طفولتي لتذكر كم كانت تخص العائلات المستورة بعطائها، بدون أن تشعر أحد بذلك.. أو كما ورد في الحديث لا تدري يسارها ماذا تفعل يمينها، تقوم بذلك بنفسها، وصاحب الحاجة لديها لا يحتاج إلى جواز سفر أو استئذان.. يكفيها علمها بشأنه وأمره حتى تبادر من تلقاء ذاتها.. وهذا هو شرط المبرّة الخالصة المقبولة.

ولقد كانت، وسع الله لها في جنته، بارّة بأبويها.. وبالذات جدتي لأمي، التي طال عمرها، بعد أن توفى عنها زوجها في وقت مبكر، حتى صارت امرأة عجوزاً، معمرّة، وفي آخر أمرها أصبحت عاجزة عن الحركة، لا تقدر إلا أن تمدد على سريرها. فكانت

والدتي – شهد الله – تعتني بها بقدسية شبه كاملة! تذهب إليها في الصباح، فتغسل لها وجهها ويديها ورجليها، وتقدم لها فطورها وتطعمها بيديها، كما تفعل مع الطفل الصغير! واستمرت على هذه الحال سنوات على هذه الحال لا تفارق رعايتها لوالدتها بحنان قدسي، مهما اعترضتها من صعوبات وألمّ بها من عوارض الانشغال والمرض.. إذا كانت والدتي نفسها قد كبرة ومرضت وضعفت صحتها: كانت رضي الله عنها تعتبر هذا تقدمه لها بين يدي آخرتها التي ستأتي لا محالة!.. وعلى هذا استمرت والدتي على ذلك حتى لحقت جدتي بربها..

كما كانت، امرأة قوية الشخصية، مع حنانها الوافر الغامر.. امرأة كما يقال أخت الرجال.. ولا تخشى في الحق لومة لائم. ولا تتراجع عن موقفها مهما كانت التحديات.. لا تهاون ولا تجامل، وإذ آمنت بقضية، فإنها لا تقبل بالحل الوسط! فالأمر بالنسبة لها أما أبيض أو أسود. وإذا دخلت في معركة تعتقد بأحقيتها، لا ترضى ان تتراجع إلا منتصرة، أو مخذولة.. قاتلة، أومقتولة! كما كان يقول أستاذنا المرحوم العقاد عن نفسه.

وقد كنت أنا أعجب بقوة شكيمتها في هذه الناحية، وهي المرأة التي يقال عنها عادة في مجتمعنا الشرقي، أنها «ولية مكسورة الجناح»! ولكن والدتي، رعاها الله بملائكته، كانت تصل بمواقفها إلى النهايات، إلى الحدّية، ولذلك غالباً ما كانت تنتصر.. كما يقال فإن من يطلب الموت توهب له الحياة.. ولعله من هنا اكتسبت تلك المهابة المميزة في محيط الأسرة والمجتمع من حولها..

حتى إذا وقعت نكسة ١٩٦٧، وانفض السامر، وتفرق الشمل، وأصبح جزء كبير من أسرتها بنين وبنات، أحفاداً وحفيدات، ممن ولدوا بعد النكسة شرق النهر، أو في البلاد العربية الأخرى.. أصابها هم كبير كبير، واصبح دعاؤها وغاية الغايات لديها أن تحل المشكلة وتزول الغمة ويجلو المحتلون ويجتمع الشمل.. وتعود إليها مملكتها الصغيرة التي تبعثرت وتفرقت في الأرض، شذر مذر! حتى إذا توفى والدي، رحمه الله، بعد هذه الحرب بعامين انكسر في كيانها شيء لم ينجبر أبداً! وانفتح في وجدانها جرح لم يندمل، واذكر أنني عندما زرت الضفة الغربية، لأول مرة بعد الاحتلال صيف عام ١٩٧٣، وذهبت أول ما ذهبت لزيارة قبر الوالد ثم عدت، جلست إليّ، وجلست إليها، وكنا وحدنا، تحدثني حديث الشجن.. وكان في كياني حزن كبير لم يتفجر.. ودموع كثيرة لم تذرف، وزهور كثيرة لم تنثر! وكان مما قالته لي، وهذا شيء لا أسمعه منها إلا في ذلك الوقت، فقد كان شأن عاطفتها نحو والدي الراحل، شأن الكثيرات ممن هن

مثلها: الحب الصامت. قالت: انه منذ أن ذهب إلى ربه، لم يغب عن ذهني لحظة، فذكراه ماثلة في كياني في كل آن، وهو معي طوال الوقت! قلت لها، يا حماك الله ورعاك اسمعي ما كان من أمري عندما علمت بوفاة الوالد.. وأنا بعيد بعيد عنه، في أرض المهجر، لقد بقيت لا أحتمل أن يذكرني به أحد، حتى لو كان الحديث عنه تهويناً للمخطب وتسلية للنفس حتى تنسى. لقد اكتفيت آنذاك بالصمت! وانطويت على حزني لنفسي، كسرّ كبير أضن على أحد أن يتحدث به لأحد.. لقد اعتقدت آنذاك.. أو أن هذا كان شعوري الأصيل أن أحداً لن يتمكن من تعزيتي، أو كما قال الشاعر: لقد غفل - أو عجز - المعزّي عن مصابي!

حتى إذا أعرت من دولة الكويت وذهبت إلى جامعة النجاح ١٩٨٠، واجتمع شملي بها، وبسائر أسرتي هناك، كان وجودي بالقرب منها - بالرغم من كابوس الاحتلال - عيد متواصل! وتعزية وجودية عظمى! حتى إذا اضطررت للرحيل من جديد، والعودة إلى الكويت البلد الذي تفضل باعارتي دعما للتعليم العالي لأهلنا، في الوطن المحتل، انفتح باب آخر للحزن في كيانها لا أظن أنه أندمل، بل ظل ينزف حتى رحيلها الأبدي إلى الدار الآخرة.

واليوم، وأنا أكتب هذه السطور، في ذكراها الأربعين، لا يعزيني عن فقدها أحد أو شيء، إلا احتسابها وديعة عند الله، من تحتسب عنده الودائع! وإلا ايماني أنها بين يدي رحيم كريم واسع المغفرة، أرجوه ، وأتوسل إليه مخلصاً أن يغمرها بشآبيب رحمته، ويغدق عليها من فيض كرمه، وأن يغفر لها ويتجاوز عن سيئاتها.. وأن يعجل برفع الكرب عن أهلينا وأحبابنا في الوطن المحتل.. الذين يغادرون هذه الحياة الدنيا ولا يستطيع أحبابهم أن يودعوهم قبل رحيلهم ولسان حالهم يود أن يقول:

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة ولكن لا أودعه!

ولعلّ هذا هو أجلى مظاهر مأساتنا مع العدو.. الذي بوجوده تنتهي أو تقصف الأعمار، وتموت الأزهار، اما همّا وكدراً وحسرة.. أو أنها تموت كما تموت الاشجار واقفة، وهي تناضل المحتل الغاشم، وتذهب إلى ربها شهيدة قريرة العين..

رحم الله والدتي، التي هي رمز لكل أم فلسطينية.. صابرة محتسبة مناضلة مرابطة تحت نير الاحتلال.

وإنا لله وإنا إليه راجعون..

لقاء مع الشاعر اليوناني ستافروس ميليسينوس

- ١ -

الشاعر بائع الصنادل

شهد العقدان الأخيران اهتماماً عظيماً بالأدب اليوناني. ولقد ساهم في هذا الاهتمام الأعمال العظيمة لكل من كازانتزاكيس وكافافي وسيفريس. كما كانت للترجمة الكبيرة التي تمت لهذا الأدب اليوناني أثرها البالغ أيضاً في سعة انتشاره وزيادة الاهتمام به ولقد كان ممن وصل تأثيرهم إلى الغرب. وهبّ عطر شعره كما يهب الياسمين، الشاعر اليوناني ستافروس ميليسينوس: فمن هو ستافروس ميليسينوس؟:

إذا أنت فتحت مرجع الكاتب فرومر عن أثنيا فإنك واجد ما يلي عن هذا الشاعر: «على ناحية شارع بوندروسو المتفرع من ميدان موناستيراكي (في أثينا) ستجد دكان الشاعر الأثيني، صانع الصنادل، ستافروس ميليسينوس. انظر عبر الشباك الذي يكسوه الغبار، وستجد مجموعة من المقالات على صحف قد اصفر لونها عن هذا الشاعرالشهير. وبين قطع الصنادل وأدوات المهنة ستجده مستعداً لمساعدتك في اختيار ما تريد.. أو أن يصنع لك ما تشاء من قياس أو نمط معين.. وبين زبائنه عدد كبير من المشاهير مثل جاكي اوناسيس (وكارتر وتاتشر وغيرهم). كما أنك ستجد في داخل دكانه شهادات مؤطرة فوق مكتبه تشهد بأن مكتبة جامعة هارفارد لديها كتب من مؤلفاته. وهنا ستجد أن هذا الشاعر انسان بسيط، لطيف، محب للآخرين.. وأنه لا ينسى أن يحدثك عن شعره بينما يحدثك في اختيار صندلك الذي تريد...»

- ٢ -

الخلفية والآثار الفنية

إلى هذا المكان.. وإلى هذا الدكان.. كان لا بدّ أن أتوجه لأعرف شيئاً عن الوجه الثقافي - وليس الوجه السياحي فقط - لأثينا، هذه المدينة الجميلة، الرائعة الجمال، وفي ركن من أركان هذا الدكان المتواضع كان لقائي مع شاعر أثينا الشهير ستافروس

مليسينوس. وجرى هذا الحوار:-

● ماذا عن خلفيتك الحياتية والفنية؟

- ولدت في أثينا.. وبها نشأت.. ومنذ نعومة أظافري تكشفت لدي موهبة الأدب. وعندما كنت في الجيش ابتداء من عام ١٩٥١ أحسست بمقدرتي على كتابة الشعر. وعندما كنت في الثانية والعشرين، وكنت آنذاك ميالاً للتشاؤم كتبت ثلاث مسرحيات، تنم عن هذا التشاؤم. على أني لم أتمكن من نشر شيء من نتاجي في هذه الفترة لأني كنت ضابطاً في الجيش. من هنا فقد كان علي أن أترك الخدمة العسكرية، وأعود لأتسلم دكان أبي لبيع الصنادل وصناعتها. وكان والدي قد بدأه عام ١٩٢٧. كان هذا بالرغم من اختصاصي الدراسي في هندسة الراديو.

● لماذا اخترت هذا العمل وفضلته على الوظيفة أو البقاء ضابطاً في الجيش؟

● لأني أريد أن أعيش حياتي حراً من قيود الوظيفة... وبالذات لأني أفضل العيش في مدينتي أثينا. ولقد كان الفيلسوف سبينوزا هو الذي فضل صناعة النظارات على أن يذهب إلى امستردام عاصمة هولندا ليدرس في جامعتها.

● ألا من مزيد عن حياتك وأساليب معيشتك الآن؟

● حياتي كما ترى: أبيع الصنادل لبعض الوقت.. وأكتب في الوقت الآخر! كثيرون يأتون إلى دكاني لأنهم مهتمون أولاً بشعري، وثانياً بصنادلي! لي اطلالة على عالم الثقافة من خلال الاذاعة والتلفزيون والمحاضرات.. والمستمعون والمشاهدون يفضلون قراءاتي لقصائدي أكثر مما يفعل المذيعون.

● هل هنالك فلسفة معينة تجعلك تعيش حياتك بهذه الصورة بين المادة والروح.. بين التجارة والشعر؟

● حقاً أنني أحب أن أجمع في حياتي بين المادة والروح وأنا في هذا أطبق الرمز الذي يطلقه عمر الخيام في رباعياته «الكأس والخمرة» وأنا أعتقد أن الالهام انما يأتي في لحظات العمل والكد الكبيرة، وسط زحام الحياة وزخمها وحيويتها العظيمة!

● هل لك في أن تحدثنا لماذا تأخرت شهرتكم كأديب وشاعر مع العلم أنك بدأت مبكراً.. هل لهذا علاقة بعملكم الحالي؟

● أجل لقد بدأت النشر مبكراً في حياتي. ومع هذا دعني اصارحك بشيء: لقد

تعرضت لما يمكن تسميته بمؤامرة الصمت عما أكتبه. الأكاديميون في جامعة أثينا كانوا متحفظين معي أو عليّ! أحدهم أرسل لي العلماء والنقاد الأجانب ولكنه رفض تدريسي في صفوفه لأنه محرج! لقد وضعني الأكاديميون والنقاد في الحجر (الكرنتينا) حوالي ربع قرن! ولكني مع هذا صمدت.. واستمررت في الكتابة والترجمة والنشر في أماكن متفرقة.. حتى وجدت أخيراً القبول! وخرجت من غرفة الحجر.. فقد بدأ كثير من الأشخاص من المهتمين بالأدب والفكر بالكتابة إلي.. والكتابة عني.. ومن بين هؤلاء من هو حاصل على جائزة نوبل في الآداب. كما عنيت بي جريدة الماتينيه اليومية الباريسية. وتواترت الكتابة عني من الشرق إلى الغرب. ولعل السرّ في هذا عائد إلى أنهم يؤمنون بأعمالي.. فأنا أعبر عن فلسفة معينة..

● بمن تأثرت يا سيد ميليسينوس؟

● لقد تأثرت بالكثيرين – وأنا هنا اذكر ولا أحصر – من بينهم عمر الخيام وكافافي الكاتب اليوناني الاسكندري الموطن، كما تأثرت بالكاتب المسرحي برتولد بريخت، والذي قمت بترجمته، ولوركا الشاعر الاسباني، وجبران خليل جبران الذي ترجمت له كتابه «رمل وزبد» و «المجنون». كما أني تأثرت أيضاً بهوشي منه ترجمت عملين من أعماله الشعرية، كما ترجمت المزامير عن التوارة؟ ولكن حبي الأكبر يظل للشاعر الأمريكي ادجار آلان بو، الذي عشت مع فلسفته المتشائمة في بواكير حياتي.

● هل لك أن تجمل لنا ما هي آثارك؟

● لي أربعة عشر كتاباً منشوراً وكتابان غير منشورين. كما أني الفت ست مسرحيات. أخرج منها اثنتان ثلاث مرّات؟

● مَن من بين هذه الآثار أثر تعتز به وكان له اسهام كبير في شهرتك العالمية؟

الرباعيات أو ما يطلق عليه الرباعيات الأثينية.

– ٣ –

الفلسفة

قبل أن تحدثنا عن الرباعيات دعنا نعود إلى الفلسفة فأسألك عن المنطلقات الفكرية الفلسفية لأعمالك وآثارك عموماً؟

● ابتداء دعني أخبرك أنني أتعامل مع الدين على مستوى خالد وأبدي سرمدي شامل.. فأنا أؤمن بفكرة أساسية ألا وهي أن العالم أصبح صغيراً جداً، قرية صغيرة كما يقال، وأن لا فواصل بين الانسان وأخيه الانسان.. من هنا فإنه يجب علينا أن نؤمن بالبساطة والنية الطيبة، وأنا أدعو إلى جعل الحياة أكثر أثارة وامتاعاً. كما أنني أنطلق من فكرة أن جوهر الأشياء ثابت والشكل فقط هو المتغير.. وأن الخالق القدير يعيد بصورة مستمرة ومتواصلة خلق الأشياء من جديد ليكسبها ذلك الامتاع والجدة والاثارة! فأنا أنظر إلى الحياة أو أشبهها بسجادة فاخرة تعاد صناعتها من جديد طوال الوقت أو في كل لحظة! وعلى هذا فإني أعتقد أيضاً أن العالم والكون هو دائماً في أحسن أوضاعه! وما دور الناس في هذا الوجود إلا أنهم قائمين أو ممثلين لأدوار رسمت لهم منذ الأزل: البعض يلعب دوراً صغيراً.. والآخر يلعب دوراً كبيراً.. وكل دور هو بحسب حجم صاحبه، وأنا أقول في احدى قصائدي: «أن الرواية قد كتبت له من قبل.. بينما يعتقد هو أنه يقوم بذلك الدورا»

لقد تأثرت بفلسفة أفلاطون المثالية.. فأنا من هذه الناحية مثالي. وبصفتي شاعراً فأني أحب أن أضع الفكرة أولاً... وأنا أحرص على أن أضع الفلسفة في كل عمل فني لي. ولقد كان كافافي الأديب اليوناني الذي عاش في الاسكندرية حياة متواضعة في النصف الأول من هذا القرن، هو خير من عبّر عن أفكاري الفلسفية. بل لقد أعدت أنا كتابة كافافي بطريقتي الخاصة!

على أية حال فإن فلسفتي هذه متطورة متجددة.. يوماً وراء يوم.. وليست مثل فلسفة كافافي الذي يقف على نفس الأرضية الصلبة طوال الوقت. انني أعرض فلسفتي دائماً بأشكال جديدة أو وجوه جديدة، وعماد هذه الفلسفة وجوهرها أو الأمر المركزي فيها كما سبق أن قلت: هو أن الانسان مخلوق لقوة عظيمة.. ودوره مرسوم له مسبقاً من قبل هذه القوة. وان الله، منذ الأزل، ختم الأشياء بخاتمه، وان سيناريو الوجود قد اكتمل من جميع النواحي. لقد تم التفكير والتنفيذ مسبقاً بكل شيء ولكل شيء.. وليس في الامكان ابدع مما كان!

وإلى هذا، أو بالرغم من هذا، فإني أؤمن بقوة بالحياة وأحب أن أعيشها حتى الأعماق! وهنا أعود لرمزي الخمر والحب الذين يترددان في شعري، فأفسرهما بمعناهما الأوسع السكر الروحي والحب بأعظم مجاليه وتجلياته.. ذلك أن الحياة عندما نعيشها

كما ينبغي، تمنحنا أفضل بركاتها وأروع ما فيها من نشوة روحية ومادية!!

— ٥ —

الرباعيات

● اذن دعنا نعود هنا أيضاً إلى الرباعيات فنجلو ما فيها من خميرة فلسفية وفنية؟

● إذ أنت قرأت هذه الرباعيات تشعر لأول وهلة بلا جدوى الحياة!! وأن هذه الدنيا تبعث على الحيرة والدهشة! فهنالك الكثير مما لا يمكن فهمه! ولا اجابة لدي على هذه الحيرة إلا في الغرق في تجربة الخلق والابداع! وإلا في الضحك والفكاهة والعيش المليء الرخي من أجل أن تجد حلاً لما لا حلّ له!

والرباعيات من حيث الشكل نثر شعري (أرحب في أن تترجم إلى العربية ان أمكن). وهي من أفضل ما استقبلت به من قبل القراء. في أميركا يقرأونني في شيئين أساسيين: الرباعيات وجبران.

ورباعياتي تحتل مكاناً خاصاً بين الترجمات الغربية لعمر الخيام. فبينما انتقد جريفز لأنه جعل من الخيام شيئاً معقداً.. عسير على الفهم فقد اعتبر فتزجرالد أفضل منه لأنه يسّر الخيام وجعله في متناول فهم الكثيرين. فرباعياتي ذات ميزة غير موجودة في غيرها من الرباعيات: ذلك أنها يونانية الروح والطابع أكثر منها فارسية! فأنت مع هذه الرباعيات تقابل بحزم من الشعر اليوناني وليس مزيجا من الدعوة إلى الجد والهزل فقط، كما يفعل الخيام، ومع هذا فإنها لا تخلو من شيء من الوحي والالهام الذي تمليه رباعيات الخيام على قارئها. انها كما وصفها أحدهم: ماسات أو جواهر بروعة آسيوية لكنها جليت ولمعت في الضوء الصافي النقي والعظيم للأكروبولس. انك تستطيع أن تطلق بملء الفم على هذه الرباعيات «رباعيات أثينا» مع نقل اسمي لعناصر النص الأصلي في عمر الخيام، فرباعيات عمر الخيام بالنسبة لي ليست سوى مصدر للوحي والاستلهام.. فالخمر على سبيل المثال ليست بالنسبة لي إلا رمز للسكر الروحي وحرية الفكر ليس إلا!

- ٦ -

خاتمة

بعد هذه الزيارة العجلي لملمت أوراقي وغادرت دكان الشاعر الأثيني.. وأحد معالمها الثقافية الكبيرة.. ممتلئاً بفيض من الغبطة والسرور.. في أن أجد كل هذه الفلسفة والفن والابداع في هذا الدكان المتواضع.. والذي يقوم حيث كان يتمشى يومياً كل من سقراط وافلاطون وغيرهم!! وقبل أن أغادر لم أنس أن استجلي معالم صناعة هذا الشاعر المرهف الاحساس المادية، بعد أن استجليت، وشرقت معه وغربت، صناعته الروحية والفنية. لقد أردت أن أتزود بذكرى مادية لهذا اللقاء.. من دكانه الصغير الحجم الكبير - بصاحبه - والذي أصبح أيضاً مثل صاحبه أو بسبب صاحبه أحد معالم أثينا السياحية. وعندما خرجت ومعي لفافة بها صندل اشتريته منه: قلت في نفسي وأنا أودعه وأشد على يديه شكراً يا سيد ميليسينوس.. لقد زودتني بشيئين عظيمين هما عماد الحياة، كما هما عماد فلسفتك فيها: الروح أولاً والمادة ثانية! ألا توافقني على هذا؟! وهنا هزّ برأسه قائلاً: أجل! أجل!

رحلة جبلية.. رحلة صعبة

تظل كتابة سيرة ذاتية لامرأة عربية، في مجتمعنا العربي الراهن، حتى لو لم تبح كل البوح: «لم أفتح خزانة حياتي كلها» انجازاً حقيقياً، وعملاً كبيراً على طريق كتابة التراجم، وفن السيرة الذاتية.

وفيما يتعلق بهذه السيرة للشاعرة فدوى طوقان، والتي سمتها «رحلة جبلية - رحلة صعبة» فإننا لا نبالغ إذا قلنا أنها ترقى إلى مستوى عال بين جميع السير الذاتية التي كتبت في تاريخنا الأدبي الحديث. فهي لا تخلو من نفحات صدق واخلاص في قول الحقيقة شبيهة بتلك التي تلمسها لدى أديب كبير مثل طه حسين في «الأيام».. ونحن في حقيقة الأمر في هذه السيرة أمام شخصية غير عادية، شخصية شاعرة كبيرة الشاعرية، هذه الشاعرية التي تتجلى، حتى، وهي تكتب نثراً في هذه السيرة، تتحدث إلينا عن حياتها وأبعاد هذه الحياة ومراحلها وما تجلى فيها من رؤى وأفكار ومشاعر.. وما عانت من تجارب.. وما واجهت من تحديات ومصاعب.. فتجعلنا نعيش معها هذه الحياة.. ونتأمل ما فيها من معطيات.. وتضيف إلينا بما لا شك فيه.. وتترك فينا أثراً.. يقدره كل من يتعرض لقراءة أدب السير الذاتية.

الاطار الجغرافي للسيرة

في نابلس، من فلسطين، تدور وقائع سيرة حياة كاتبة السيرة، هذه المدينة التي وصفها أحد الرحالة بأنها «معتدلة الهواء تناسب للطافة كيانها اهل الجوى» - وصف بديع، المدينة تغفو بين جفني جبلين، يحتضنانها من الشمال والجنوب، ويحنوان عليها برفق.. في هذا الموقع أو الاطار، الذي يناسب أهل الجوى ويفجر المواهب ويثير الأحاسيس ويبعث على الشجن، كان ميلاد الشاعرة، ووسط هذا الأريج الذي يتدفق من تلك السفوح الحالمة لجبلي عيبال وجرزيم مشت الشاعرة في جو عطر يلائم توجهها الشعري ونزعتها إلى الابداع من كل ناحية فكأنها مع بلدها على ميعاد..

وهي تحدثنا عن دهشتها لهذا الجمال البكر، هذا الجمال العذري لهذا المكان من أرض فلسطين، ولا تنسى أيضاً أن تتأسف على غروب قسط ليس بالقليل من شمس هذا الجمال الطبيعي وتدريجياً أمام زحف المعمار الحديث الذي يحرم المدينة من كثير من

معاني رونقها ورومانسيتها وشجنها وجواها! «كانت نفسي تتوهج أمام الجمال البريء المحيط، وقد هيمن الصمت على المنطقة غير المأهولة».

من هذه البيئة استمدت الشاعرة مادتها في رسم الاطار الجغرافي ومن ثم الاجتماعي والانساني لحياتها التي ترويها في سيرتها، فتصور، بأصالة كبيرة، معالم الحياة والعادات والتقاليد العميقة الجذور، بما لها وما عليها: حياة كاملة دفنت ريشة الكاتبة في تصويرها ورصدها قبل أن تمر عليها عجلة الأيام، وتتراجع أمام سنة التطور، فتصبح شيئاً من الماضي تاريخاً من التاريخ.

محطات ثلاث

ونحن إذا رحنا نستقصي حياة الشاعرة فدوى طوقان، نريد أن نرسم لها هيكلاً، ونضع لها معالم، نجد أنها تمر في سيرتها في ثلاث محطات رئيسية: الطفولة المعذبة – المجابهة والصمود والتحدي – والتنوير والتحرير والاستقرار على أرض صلبة.

في المرحلة الأولى تكون الطفولة القاسية، التي تقاسيها الفتاة لمجرد كونها فتاة.. وتحس الطفلة ذات الاحساس المرهف بهذا الفرق والاختلاف في مجتمع الذكورة، في المعاملة بين الطفل والطفلة: «معاملة الأم تجعلني أحس بلا شيئيتي» وتقول في مناسبة أخرى: «لقد انزرعت في نفسي الغضة الطرية فكرة سيئة عن النفس، لقد شوهوني أمام نفسي».

ولا تنسى الشاعرة هنا أن تسلط مبضع النقد، على التناقض والنفاق بين السلوك الظاهر أو المعلن، والسلوك الباطن أو الخفي للرموز والشخوص والناس بعامة في هذا المجتمع في مرحلة الانتقال بين العصور الوسطى والعصر الحديث، فهو مجتمع تسوده في كثير من تصرفاته الازدواجية.

وهنا تنكفيء الطفولة البائسة، التي نشهد صفحات منها لدى طه حسين في «الأيام» على نفسها، وتغيب الفتاة الصغيرة داخل النفس: «التعاسة تضخم شعوري بنفسي»، ولولا عناية الله الذي يرسل إليها أخاها ابراهيم في الوقت المناسب لتحطمت كل مقومات الشخصية لديها، كما تتهشم المرايا، كما يقول محمود درويش.

فظهور ابراهيم في حياة الشاعرة، يشبه ظهور البدر في ظلام دامس.. وحقيقة الأمر أن ابراهيم هو الشخصية الأهم والأروع والأحن والأكرم، وكل ما شئت من أفعل

التفضيل، في حياة فدوى طوقان، بين كل من مر في حياتها.. أكثر من ذلك أنه المنقذ والمخلص والمحرر من أسار المرحلة السابقة بكل ما فيها من عوامل التخلف والكبح والتعويق: فوسط الاضطهاد إلى درجة التلاشي والانسحاق، يأتي ابراهيم كحبل النجاة والسلامة.. فعندما يدخل حياتها مسلحاً بعلمه وتجربته الثقافية والشعرية و الحياتية بعد دراسة وتخرج من الجامعة الاميركية في بيروت بكل وهجها - أي التجربة - وزخمها ويأتي إلى نابلس، تصف فدوى هذا اللقاء العظيم بلغة صوفية: «مع وجه ابراهيم أشرق وجه الله على حياتي».. حتى تقول: «في تلك الفترة القاسية من حياتي كانت يد ابراهيم هي حبل السلامة الذي تدلى وانتشلني من بئر نفسي الموحشة المكتنفة بالظلام».. وهنا تذكرنا كاتبة السيرة برقة ابراهيم الحالمة.. وشخصيته الملهمة وروعته الشاعرة فتقول: «ابراهيم رقيق كطيف».

ولعل الأهم لمن يدرس هذه السيرة أن يلاحظ أن ابراهيم فيها، ليس مصدر ايحاء واعجاب، بمقدار ما هو مؤثر ديناميكي في حياة الشاعرة يساهم في نقلها والتدرج بها من مرحلة إلى مرحلة، ومن حال إلى حال، فبدلاً من الاندثار تعود إلى الازدهار. فابراهيم من خلال حضانته الروحية، يشكل القوة الدافعة في تحويل مشاعرها المضغوطة، إلى طاقة عملية.. وأنت تلمس هذا الأثر باحساس الشاعرة عندما يختفي هذا الأخ البار والمعلم الكبير، والقلب الحنون، وأستاذ الشعر، هذا الشعر الذي هو أكسير الحياة وسر الوجود بالنسبة لفدوى، من حياة فدوى.. عندما يموت ابراهيم في سن مبكرة.. هنا! يسقط في يديها!.. وتقف مشدوهة كيانياً، أحقاً ان ابراهيم قد مات؟! ويشكل غياب ابراهيم يتماً حقيقياً لها: «موت ابراهيم هو طعم اليتم الحقيقي»..

أما المرحلة الثالثة، فتقف بين أبرز معالمها، بل على قمة الأشياء فيها، دراستها في جامعة اكسفورد.. فهي تعتبرها قمة المشوار.. رأس الجبل!.. ان حياتي هنا جميلة بشكل غير معقول، كثيفة بشكل غير معقول، شديدة الحلاوة بشكل غير معقول، هنا تحس الشاعرة بالمعاناة الروحية والنفسية، على أعمق ما يكون.. وهنا يكون اللقاء الوجودي مع معاني السعادة: الاشراق والجذب بلغة الصوفية: «أيامي في انكلترا لا تنسى.. في انكلترا عرفت الفرح الصافي» وتقول في مناسبة أخرى: «ها قد بدأ الوجود يعطيني نفسه وسوف أعرف كيف آخذه».. انها تصور تجربتها هنا بكونها «اشراقة صوفية تفصلها عن الماضي كله: تمحو من قلبي آثار الفظاظة والخشونة و القسوة وتطوقني برقى الايمان والسلام النفسي».

تجليات ورؤى وأفكار وتطلعات تتقاطع مع المحطات

لم تتحدث هذه السيرة الغنية، الذكية، الواعية المثقفة، العميقة العلاقة، الوطيدة الوشائج مع التجربة الصادقة والحارة، عن هذه المحطات - كما رسمناها بإيجاز - في خط سيرة صاحبة السيرة فقط، بل أن صفحات هذه السيرة تفيض بالتجليات والرؤى والأفكار والمشاعر والتطلعات ومعاني البوح، ففيها:

- تظهر فدوى طوقان بنت الجبل، القوية كالصخر، صخر الجبل، والجبل هنا يمكن أن يكون رمزاً للعلو والشموخ والتحدي.. ولعلنا لو اردنا شخصية نموذجاً لامرأة عربية عاشت منذ العقد الثاني من هذه القرن - ولدت عام ١٩١٧ - ومرت هي، أو مرت عليها الحقب المتعددة، وشهدت غروب عصر، وانبثاق آخر، لما وجدت أفضل من نموذج الشاعرة فدوى طوقان كما يرد في هذه السيرة. ولعله من هذه الناحية تكتسب السيرة معنى من معاني الاستمرار والخلود، لأنها سيرة عامة بمقدرا ما هي خاصة.. حقاً أنها ترسم تخوم ونتوءات شخصية معينة هي شخصية الشاعرة فدوى طوقان، إلا أنك واجد في ثناياها وبين أخاديدها صورة المرأة العربية بكل أوجاعها وآلامها وطموحاتها وتحدياتها وتفوقها وتجاوزها، من خلال التفوق على الذات بواسطة الفكر والابداع والمشاركة والاسهام.

ففدوى هي شاهدة العصر.. ورمز المرأة وأن تدون فدوى هذه السيرة بهذا القسط الكبير من الصدق والبوح هو في حد ذاته علامة كبيرة على طريق كتابة السير ووسيلة من وسائل العلاج والانقاذ.. وهذه احدى حسنات كتابة التاريخ بصدق وموضوعية، واخلاص للحقيقة، فنحن ما لم نعرف تاريخ المرض ونحدد الأعراض، لن نتمكن من علاج هذا المرض، فللسيرة هنا قيمة تاريخية توثيقية.. ولعل كثيراً من قارئات هذه السيرة من العربيات يجدن أنفسهن أمام مثال على ما تعانيه كثير من النساء العربيات في كل مكان للوصول إلى شاطيء السلامة وبر الأمان.. «خرجت إلى هذه الدنيا بين عالم يموت.. وعالم يحيا».

- وفي السيرة صفحة أخرى مشرقة للثقافة، فالقراءة بالنسية للشاعرة مقوم كبيرة من مقومات الشخصية.. فكما يقول ديكارت: «أنا أفكر فأنا موجود» تقول صاحبة السيرة: «أنا أقرأ فأنا موجودة» وعندما تشتد عليها الأيام وتتعرض للاحباط والخذلان، لا تجد العزاء إلا في الكتاب والقلم والأوراق: «وظل عالم كتبي وأوراقي وأقلامي يمدني

بالقوة».

– وفي السيرة تقديس للحظة المعاشة ودعوة للامساك بها بقوة، فالكاتبة تؤمن بفلسفة اللحظة العظيمة: «لا أستيطع أن أفسد حلاوة اللحظة بأي مسلك تمثيلي، فحين أكون في لحظة انفعال استجيب لحلاوة اللحظة بكل كياني الروحي والجسدي». انها فلسفة أشبه بدعوة الفناء الصوفي إلى حد الجذل الوجودي الكامل والاستغراق المطلق.. وعدم القبول بالوسطية والمهادنة وانصاف الحلول، وانما الانخراط والمعايشة الكيانية الكاملة للأشياء، بحيث لا تعود اللحظة بلا معنى ولا مغزى، بل هي رحيل دائم في حقول الدهشة والجمال والقداسة.

هذه الدهشة الوجودية: الدهشة الحلوة والمعاناة العذبة، ومعانقة جمالات الوجود.. اشراقات الكون بذلك الفرح الكياني، والتوهج العذري «أستيقظت اليوم حوالي الرابعة صباحاً، نشيطة ومرتوية نوماً،، تناولت القهوة في البستان، رحت أنظر إلى الأشياء حولي بعين مريض يمر بدور النقاهة».. فأنت إذا تأملت قولها هذا تشعر بهذا الاندهاش الذي دعانا غوركي إلى تمثله دائماً، ومعاناته دائماً حتى نحس بروعة الحياة! هذا الاندهاش الذي يجعلك تحس بالأشياء وكأنما تخلق أمامك لأول مرة.. وتمر أمامك كشريط مذهل! ذلك الاحساس الفذ بعظمة الحياة وروعة الأشياء. روحية المريض في فترة النقاهة بكل ما فيها من شعور بالتجدد والخشوع.. والعودة إلى الحياة والبدء من جديد، بفرح غامر!.

– ولا ينسى الزمن بقسوته وجبروته أن يفرض نفسه على السيرة، فعن هذا الخصم العنيد للانسان تتحدث صاحبة السرة عن ذلك الشعور الملازم بتسرب الزمن والأشياء من بين أصابعها، تبوح مرة أخرى بتوجع شاعري «كم يغيرنا الزمان» ولعله من بين خلق الله قاطبة كان الفنان هو أكثر الناس احساساً بالضياع عندما يأتي إلى الزمن! وان شئت شاهداً أو شواهد. فاقرأ مراثي كيتس وشللي وجوتة ولامارتين ومدرسة أبوللو وغالب الشعر الرومانسي في الآداب الفرنسية والانكليزية والألمانية والعربية.. وشاعرتنا تقول في مكان متأخر من السيرة: «هذا القلب أين ذهبت دماؤه» ثم تقول أيضاً: «أضيع في زحمة السنين»..

الحزن والايمان والوطن

– أما الحزن فانه تجل كبير كبير.. في حياة فدوى، ولعله اللحن المميز أو المفتاح الرئيس في فهم شخصيتها... ان فدوى – ربما كانت – وكما يسميها البعض، خنساء العصر الحديث وهي تتحدث إليك، من خلال سيرتها، طوال الوقت في السطور وما بين السطور بحزن شجي، حنون من نوع خاص: حزن شاعر، حزن ناطق، حزن معبر، حزن صديق، حزن حنون.. حزن معدي! ولعلك إذا كنت قرأت رواية «تس» للشاعر الروائي الانكليزي توماس هاردي، وأحسست كم هو حار وحميم، حزن الشاعر الكبير على وحيدته الذي جعل أحداث الرواية تدور حول فجيعته بها! وكيف وصف مشاعره وقد وسدها القبر وتركها وحيدة هناك! إذا كنت قرأت هاردي في «تس» وقرأت فدوى في «رحلة جبلية» فإنك في الحالتين ستحس بلوعة الأسى بصورة متشابهة.. وبالنسبة لفدوى فقد كانت فجيعتها مزدوجة.. فقد منيت بفقد شقيقيها: ابراهيم ونمر.

لقد قلنا أنه عندما مات ابراهيم شعرت بطعم اليتم الحقيقي، شعوراً لم تشعره عندما توفى والدها، حتى إذا بلغتها وفاة نمر، بعد ذلك، وفاة دراماتيكية، عندما كان يمتطي الطائرة في يوم عاصف من مطار بيروت.. وكانت هي آنذاك في اكسفورد أصيبت صاحبة السيرة بصدمة رهيبة، واسى مرير، بحيث بقيت تتلوى أياماً متوالية، من أثر هذه الصدمة فلا تكاد تفيق!! ويبلغ هول الحزن حدا بحيث تخلد إلى الصمت المطبق! فنفسها لا تطاوعها ان تفسد قدسية الحزن بالحديث عنه للآخرين.. استمع إليها لتصف حالها وشعورها وقد بلغها نبأ وفاة نمر.. «نفس الحالة التي عرتني ساعة تلقيت نعي ابراهيم.. وهكذا عرفت لم قرن الشعراء آلامهم وأحزانهم بالكبد، واكبدا قد تقطعت كبدي!» وتضيف: «كان حزني أكبر وأقدس من أن أبوح به حتى للصديق الوحيد هناك!» وتستطرد الكاتبة لتصف لنا نمر هذا الذي أشجاها وأحزنها حتى أعماق وجودها: «هو نمر الذي كان تجسيداً حياً لتيار الحياة المتدفق، مدفوعاً في مسالكها بما سماه برغسون بالقوة الحيوية، هو الذي كان يبارك الحياة ويقذف بنفسه فيها، لا يكتفي بمحاذاة الأشياء بل يدخل في قلبها، ويحياها بكل الذكاء والعمق الذي تميزت به شخصيته المتفردة، لماذا يموت قبل الأوان، لماذا يموت بهذا الشكل الفاجع».

وتعتنق الشاعرة الفكرة القائلة أن الألم في الحياة هو الأبقى والأخلد.. هذا الألم الذي يحفر وجوده في كياننا وأعصابنا وشرايينا ووجداننا، فلا يكاد يريم! «الفرح ابن

ساعته يستهلك لحظاته ويمضي معها.. أما الألم الذي تعتّقه الأيام فإنه يكفي أن يكون لذع جمر، انما يصبح شجناً عريضاً تنام فيه تجاربنا حتى تستدعيها ذكرى أو يثير حسها النائم منظر جميل».

– وللدين في كيان الشاعرة ورؤاها وأفكارها مكان.. فهي في احدى مراحل حياتها.. وأمام لغز الحياة المحير تتساءل: لماذا يكون ايماننا كاملاً فنستريح؟ وهي ترى الحياة ناقصة حين نفتقد اليقين.. وان الانسان يظل ناقصاً بدون المعرفة الروحية، وهي تردد وجهة نظر يونج العالم النفسي المعروف عن أثر الدين في حياة الانسان: «ان هنالك احساساً دينياً يظل موجوداً في داخل الناس مهما تغيرت أفكارهم واراؤهم الدينية» وتستمع لقول صديقها المتدين الذي يقول لها: «لا تسمحي لعقلك أن يصطرع مع قلبك».

– أما الوطن فإنه التجلي الدائم: الوطن الصغير نابلس – جبل النار – بجبالها وزيتونها وقمرها واقحوانها وشموخها، والوطن الكبير فلسطين، والوطن الأكبر، الوطن العربي، هذا الوطن بكل أبعاده، هو صاحب الشاعرة المستمر، وصديقها الدائم، وأوجاع هذا الوطن وآلامه وانتفاضاته الفلسطينية تحتل من السيرة، صفحات تبين الكفاح البطولي والصمود العتيد.. ومع ذلك النكبات المتوالية.. والنكسات الوبيلة!

وهي تعبر عن حبها لهذا الوطن عبر سماعها لأغاني فيروز: «حين أصغي إلى غنائها عن بلادي يتوهج الجانب العاطفي من ذاتي فأرى بلادي أحلى مما هي وأحبها أكثر مما كنت أحبها واحس بفجيعة فقدها كما لم أحس من قبل، وأحب كل الوجوه التي تعرض في شوارعها وأسواقها القديمة وحوانيتها ومدارسها ومصانعها وحقولها وأتذوق طعم الانتماء إلى شيء ولو كان مفقوداً».

ما يمكن أن يؤخذ على السيرة

وقبل أن نختم الحديث عن هذه السيرة علينا أن نتساءل هذه الأسئلة المنهجية: هل قالت الكاتبة كل شيء مما يعتبر أساسياً لدى الكثيرين في كتابة فن السيرة الذاتية؟ لقد وفرت علينا الكاتبة عناء الاجابة فأخبرتنا أنها لم تقل كل شيء.. ولم تبح كل البوح..

لماذا لم تحدثنا عن شعر أخيها ابراهيم طوقان، فلم يكن لها وقفة عند شعره الوطني مثلاً، وبخاصة أن وطنياته تعتبر من عيون الشعر العربي الحديث. فلقد عالجت الكاتبة

موضوع ابراهيم من حيث أثره فيه وعليها، كأستاذ وراع.. ولكنها لم تقف عند شعره هو، وتضرب فيه بعمق.. ولقد كان في السيرة مندوحة ومجال لتفعل.. وحبذا لو فعلت لكانت أضافت لنا وللنقاد ومؤرخي الأدب بعداً جديراً بالتقدير والدراسة والبحث.

ولماذا لم تحدثنا عن تجربتها في ابداع الشعر، وكيف ولدت أشعارها، وبخاصة تلك التي تعتبر بمثابة معالم على الطريق في مسيرة تطورها الشعري.. كما أنها لم تتطرق لتجربة الشعراء العرب الآخرين المعاصرين. لقد كان في مكنة السيرة – أيضاً – تضيف لنا الكثير هنا، ولكنها لم تفعل..

ومهما يكن من أمر، فإن «رحلة جبلية.. رحلة صعبة» سيرة حياة فدوى طوقان، بالرغم مما قد يوجه إليها من نقد، تظل عملاً أدبياً وتاريخيا موثقاً وأثراً انسانياً معبراً.. واضافة حقيقة في فن كتابة السيرة الذاتية بخاصة.. والأدب بعامة.

oberkandl.com

لقاء مع الشاعرة فدوى طوقان

● احتلت سيرتك الذاتية «رحلة جبلية – رحلة صعبة» والتي نشرت في الآونة الأخيرة أهمية خاصة.. وزادت في تسليط الأضواء عليك.. كيف ولدت هذه السيرة، وما هي الظروف التي أحاطت بولادتها؟

● لولادة السيرة قصة: ذات مساء تلقيت مكالمة تليفونية من محمود درويش، وكان آنذاك رئيس تحرير مجلة «الجديد»، التي تصدر في حيفا، يسألني فيها المساهمة في الكتابة من أجل باب جديد استحدثه في المجلة عنوانه «صفحات من مفكرة»؛ قال محمود أنه من هذا الباب يتسلل إلى يوميات الكتّاب والشعراء الخاصة، ويسرق منها صفحات يهديها إلى القراء، ولكن عملية التسلل تجري بأسلوب جديد، إذ يعلن محمود لصاحب اليوميات المرشحة للسرقة، أن يومياته معرضة للفضيحة، وما عليه لكي ينجو من الفضيحة إلا أن يتبرع بصفحات مختارة من يومياته.

استجبت لرغبة محمود، ونشرت صفحات من مفكرتي في أحد أعداد مجلة «الجديد» ومن المناسب الآن أن أذكر أن تلك الصفحات التي نشرت آنذاك في باب «صفحات من مفكرة»؛ كانت النواة التي انبثق عنها كتابي هذا – رحلة صعبة – والذي نشرت منه فيما بعد عدة حلقات في مجلة «الجديد» بين عامي ١٩٧٧ – ١٩٧٨ حين كان يرأس تحريرها سميح القاسم.

● ما الذي أردت قوله والتعبير عنه في هذه السيرة؟

● السيرة تعبير عن الكفاح والتمرد.. بل الصراع الكياني الكامل.. وأنا أشبه حياتي بقصة «الشيخ والبحر» التي كتبها الكاتب الأمريكي ارنست همنجواي.. هذه القصة التي انتهت نهاية مأساوية، فبعد أن اصطاد العجوز سمكة ضخمة، بعد طول عناء وصبر، وعاد بها إلى الشاطيء، معللاً النفس بالأماني العذاب، هاجمته أفواج تلو أفواج من سمك القرش، وتركت سمكته الكبيرة، ومحط آماله.. هيكلاً عظمياً بلا لحم! وهكذا قصة الانسان: التي هي في حقيقتها صراع دائم مع الأشياء.. وكما هو واضح فإن نتيجة هذا الصراع ليست محسومة دائماً لصالح الانسان.. ولهذا فإنه من المهم أن لا يلقي سلاحه ويستمر باصرار وجودي على نضاله.. مهما كلف الثمن.. ولعلّ هذا هو الشيء الأساسي الذي أردت قوله.. من ناحية..

ومن ناحية أخرى، فإن السيرة فيها معنى التطهر والتنقية الذاتية، فأنت عندما تكتب عن شيء معين تتخلص من تأثيراته وآثاره عليك.. والفن؛ بأشكاله المتعددة، ذو تأثير عظيم في عملية التسامي والتصعيد الذاتي.. والسيرة التي كتبتها.. كانت بالفعل نوعاً من أنواع التطهر الحقيقي.. فبعد أن كتبت تجربتي الحياتية، تحررت من وقعها وألمها!

● بمن تأثرت في فنّ كتابة السيرة الذاتية؟

● أولاً وقبل أي شخص آخر، تأثرت بالدكتور احسان عباس. وبخاصة كتابه «فن السيرة» واحسان عباس، أستاذ كبير في النقد ومنهج الكتابة.. كما تأثرت بكتاب «حياتي» لأحمد أمين. فأحمد أمين كتب قصة حياته بدون أن يتحدث فيها عن تجربته العاطفية باستفاضة، بل لمحّ، وهذا ما فعلته أنا! فأنا كما قلت في السيرة: لم أبح كل البوح!

● هل هناك نسق معين سرت عليه في كتابة سيرتك الذاتية؟

● أجل. لقد راعيت البعد الروائي أو النفس الروائي. ففي سيرتي وكما شهد بذلك بعض النقاد، نفس روائي معين. فقد كتبتها كما أكتب قصة. ولعلّ هذا ما أعطاها الصفة الدرامية.. وكونها، ربما تشد القارئ إلى قراءتها، كأنما هي قصة، ذات فصول وأحداث ومشاهد.. أو أنها سيناريو متكامل لأحداث حياتي..

● ما دمت قد أشرت إلى رأي النقاد، فهل لك أن تحدثينا عما قالوه عن هذه السيرة؟

● سعيد العيسى قال لي: يا فدوى انك تعانين مما يسمونه في علم النفس عقدة الكف أو الكبح والاحجام، بمعنى أنك تودين أو تريدين أن تعملي شيئاً، وتمضين في طريقك إلا أنك تتراجعين في آخر لحظة! ولعلّ هذا عائد إلى أني كما أسلفت، لم أقل كل شيء في تجربتي! وقال لي أفنان القاسم أن في سيرتك نفساً روائياً أو قصصياً كما أشرت أعلاه. أما الدكتور علي سعود عطية فقد أعطى الحزن في السيرة بعداً انسانياً عالمياً عندما قارن بعض صفحاتها بما هو مكتوب في تس للشاعر والقصاص الانجليزي ثوماس هاردي.

● أخذ عليك البعض أنك لم تعط أخاك ابراهيم حقّه في السيرة من ناحية الحديث عن شعره؟ فما قولك؟

● هذا صحيح من ناحية.. ولو أني أبرزت في السيرة أن ابراهيم «صنعني». لقد سبق أن كتبت كتاباً بعنوان «أخي ابراهيم» وهناك أيضاً لم أتحدث عن شعره بما يستحق،

لأني لم أكن قد نضجت - بعد - بصورة كافية...

● ليكن لنا عودة إلى شعرك: من يقرأ هذا الشعر يحس بتطور معين، في الشكل والمضمون.. فما رأيك؟

● التكوين الثقافي والتطور الفكري، يلعبان دوراً كبيراً في صناعة الشعر، أو أي أثر أدبي أو فني آخر.. وأنت تلمس هذا في تطور دواويني بين «وحدي مع الأيام»، إلى ديوان «أمام الباب المغلق» إلى «على قمة الدنيا وحيداً».. ويمكنك القول أن شعري مرّ في مرحلتين: مرحلة ما قبل النكسة، ومرحلة ما بعدها، والمرحلة الثانية هي مرحلة الشعر المرّكب. على أنني في المرحلة الأولى عانيت من الذاتية والانعزالية، وبعد الاحتلال ملت إلى الموضوعية والانسانية.

● يصنفك البعض الآن، انك من شعراء ما يعرف بالشعر الحديث، فهل توافقين على هذا الرأي؟

● هذا صحيح.. ولو أني اختلف عن كثيرمن شعراء الشعر الحديث. فبالرغم من كون قصيدتي مركبة، إلاّ أن الرموز فيها غير مغلقة، الرموز فيها مرموز إليها ان صح القول. فمثلاً قصيدة نبوءة العرّافة، ترمز إلى القضية الفلسطينية، ونضال الانسان الفلسطيني.. وبهذه المناسبة لقد أسعدني أن أسمع في احدى الأمسيات من راديو القاهرة الشاعر المصري الكبير المرحوم صلاح عبد الصبور، وهو من هو في ريادة الشعر الحديث، وقد طُلب إليه أن يقرأ شعراً يختاره، وكانت الاذاعة في زيارة مكتبته، فاختار ديواني «أمام الباب المغلق» وقرأ قصيدة لي هي «لا شيء يبقى».

● حدثينا عن التجربة السيكولوجية التي تمرين بها أو تعانينها عند كتابة القصيدة أو ما يطلقون عليه تجربة الابداع أو الالهام؟.

● أمرّ عند كتابة القصيدة، عادة، في المراحل التالية:-

- التوتر والاختمار. وهذه قد تأخذ وقتاً طويلاً قد يمتد سنوات!

- ولادة البيتين الأولين من القصيدة، يشكلان المرحلة الاصعب والأهم من كتابة هذه القصيدة. وهذان يولدان كنوع من الالهام أو الوحي! وعادة تلعب الموسيقى الكلاسيكية دورها في تفجير الطاقة الشعورية وتحويلها إلى طاقة شعرية لدي..

- بعد ذلك يأتي دور الكتابة الواعية.

– ومن ثم أترك للمنظور الزمني أن يأخذ دوره.. فلا بدّ من مرور بعض الوقت حتى أضع القصيدة في شكلها النهائي.. والدائم..

● كيف كان تواصلك مع شعراء الأرض المحتلة عام ١٩٤٨؟

● تعلم، أننا قد تأثرنا – أعني أدباء الضفة الغربية – بأدباء الأرض المحتلة عام ١٩٤٨، وقد ظهر هذا واضحاً في الخمسينات، في فترة ما قبل احتلال ١٩٦٧. حتى إذا سقطت الضفة الغربية في يد الاحتلال، وزرت حيفا، وجريدة الاتحاد، قال لي محمود درويش: نحن مدينون لك بقصيدة: لن أبكي، تلك القصيدة التي أقول فيها:

لو أن الهزيمة لا تمطر الآن أرض بلادي
حجارة خزي وعار
ولو أن قلبي الذي تعرف
كما كان بالأمس لا ترعف
دماه على خنجر الانكسار
ولو أنني يا صديقي كأمس
أدل بقومي وداري وعزتي
كنت إلى جنبك الآن، عند شواطيء حبك أرسي
سفينة عمري
كنا كفرخي حمام.

قال محمود درويش ذلك، ولم يلبث طويلاً حتى قال قصيدته المشهورة «يوميات جرح فلسطيني» رداً على قصيدتي: لن أبكي وكان مما قاله فيها:

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا أختاه من عشرين عام

نحن لا نكتب شعراً، ولكن نقاتل.

وأثناء لقائي بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر في أواخر شهر ديسمبر ١٩٦٨، حدثته عن أولئك المتجذرين في ارضهم منذ عام ١٩٤٨، رغم كل تحديات الصهيونية التي تواجههم، لا سيما المحاولات المبذولة لترسيخ العدمية القومية في وجدان الأقلية العربية في اسرائيل، كما حدثته عن معاناة المثقفين الوطنيين من أدباء وشعراء ومفكرين، وما يكابدونه من الاعتقالات وأوامر الاقامة الجبرية التي تحدد تجوالهم في وطنهم.. وقد غمرني الشعور بالسعادة حين سمعت من اذاعة القاهرة التحية الحارّة التي وجهها جمال عبد الناصر إلى العرب الصامدين المكافحين تحت جناحي الخفاش الكبير!

● ما رأيك بالحركة الثقافية في الضفة الغربية الآن؟ وهل هناك تشابه بين ما جرى لهذه الحركة عام ١٩٤٨ وما تلاه، بما جرى لكم؟

● منذ بداية الاحتلال ونحن نمر بتجربة حصار ثقافي، هذه التجربة التي عانتها قبلنا الأقليات العربية في اسرائيل على مدى سنين طويلة، من اغترابهم في الوطن. فنحن منذ بداية الاحتلال نكابد مصادرة السلطات لكتب من المكتبات الخاصة والعامة، سواء كانت هذه الكتب أدبية أم دينية أم جغرافية أم تاريخية، هذا عدا عن قوائم الكتب الممنوعة، التي تطلع بها علينا الرقابة العسكرية قائمة تلو الأخرى.

لكن، لعل مما يعوض عن هذه النتائج السلبية للحصار الثقافي، وحواجز المنع والضغوط التي تمارسها السلطات الاسرائيلية هو هذا الامتلاء الذي بدأ يتحقق شيئاً فشيئاً مع نشوء التفاعل، والتواصل الحيوي بين الجيل الجديد من الأدباء اليافعين وبين الرموز الأدبية والوطنية والقيادات العربية التي بقيت مزروعة في أرضها بعد السقوط عام ١٩٤٨.

من خلال هذا التواصل، ومن خلال هذا التفاعل، تكونت وستظل تتكون وتتنامي قطرات الضوء تحت ليل الاحتلال، وسوف يستمر العمل معاً لاعادة تركيب ما هو كائن من الحلم بما سيكون!

● هل تودين ذكر شيء عن بعض من تعرفت إليهم شخصياً من شعراء وأدباء المقاومة تحت الاحتلال ١٩٤٨.

● كان القاص توفيق الفياض من أوائل الوجوه التي هلّت علي بعد احتلال ١٩٦٧، بعد الانهيار العام للسقف الفلسطيني والتقاء العائلة الفلسطينية عبر الجسور الجديدة التي

أوجدها الاحتلال المشؤوم. ولقد كان توفيق فياض يوافيني في كل زيارة بجريدة «الاتحاد» وبمجلتي «الجديد» و «الغد». وكانت هذه الصحف السياسية الأدبية ولا تزال محظور توزيعها في الضفة والقطاع. من خلال هذه الصحف تعرفت على أميل حبيبي والدكتور إميل توما والأستاذ صليبا خميس والأستاذ علي عاشور.. أولئك المعلمون الكبار حاملوا الشرارة من النار المقدسة «المبشرون بانتصار الحياة». على أن محمود دروش وسميح القاسم في موضوعهما هما الاكثر ابداعاً بين الجميع.. ولو أن محمود درويش متأثر بأدونيس إلى درجة الافتتان!

● من من أدباء الضفة الغربية يستحق التقدير في نظرك؟

● الاستاذ علي الخليلي، أديب وشاعر، يمتلك صفة الفن والعمق.. وهو ضد المباشرة المسطحة.. ولو أن فيه أحيانا ابهام.. وغموض.. وكما أشرت سابقاً أنا مع الرمز الواضح الذي يعطي للقصيدة أبعاداً ويكثفها. نعم، أنا ضد الابهام والتغميض.. أذكر هنا ولا أحصر.. فهناك عدد ليس بالقليل من الشباب الواعد الذين يضيق لمجال عن ذكرهم والحديث عنهم..

● ما هي طموحاتك الأدبية، بالاضافة إلى القصائد الشعرية والسيرة الذاتية؟

● أنني أتطلع إلى كتابة الرواية. وكما تعلم فإن القصيدة تلمح والرواية تفصح.. وعلى هذا فمن أجل اعطاء تجربتي حقها، أعتقد أن الرواية ضرورية. دعني أقول لك: أن الزمن الفلسطيني هو زمن الرواية.

● يغلب على قصائدك.. وكتاباتك عموماً طابع الحزن؟ فهل من تعليق او تعليل؟

● صحيح! أنا والحزن توأمان. تجربة الفقد المبكر لأخي ابراهيم، ومن ثم شقيقي نمر، تركا في كياني جرحاً لم يندمل [كانت عيناها تغرورقان بالدموع عند ما ذكرت أخويها ابراهيم ونمر] فأنا أنتجونا سوفوكليس الذي يمثل قمة التراجيديا في المسرح اليوناني، أعظم المسارح البشرية على مدى التاريخ.

● ماذا عن التجربة العاطفية في شعرك؟

● أكتب قصيدة الحب بكل حرية. لم أبتذل ولم أتغزل بالرجل! لم أفعل كما فعل نزار قباني بالنسبة للمرأة. أنظر للحب كقيمة.. وتجربة صدق يشارك بها طرفان، وليس طرف واحد.. وأنا أؤمن بالمعاناة في الحب.. وأكتب فيه انطلاقاً من هذه المعاناة. وأنا أستطيع أن أميز بين من يحبني لذاتي ومن يحبني لشعري أو لشهرتي على سبيل المثال،

وعلى العموم في العلاقات الانسانية أكره العلاقة المسطحة..

● كتاب وشعراء تأثرت بهم؟

قرأت وأقرأ كثيراً، وأنا لا أفعل بعد انهاء أعمال بيتي، وتغطية بعض العلائق الاجتماعية، سوى القراءة والكتابة.. قرأت في الأدب العالمي دوستوفسكي وأحب له بصورة خاصة: الأخوة «كرامازوف»، و«الجريمة والعقاب» وأحب أيضاً تشيكوف في «الأخوات الثلاث».. وقد استمتعت عندما كنت في لندن بحضور مسرحيته النورس، بالنظر للقيمة العظمى التي يعطيها تشيكوف للفن والفنان.. وأثناء وجودي في اكسفورد غرقت في الأدب الانجليزي حتى الأعماق!!

● دعينا نصل إلى المحطة الأخيرة، في هذه المقابلة، لقد قال دايان يوماً عن شعرك: إن كل قصيدة من قصائدك تصنع عشر فدائيين؟... هل لنا أن نسألك أن تضيئ هذا الجانب من شعرك؟.

● من الميزات الأساسية التي تميز شعري تحت الاحتلال هو جانب المقاومة فيه.. ويظهر هذا واضحاً في دواويني.. لكنني أود أن أشير هنا فقط إلى بعض القصائد، قاصدة أن أجلو بعض ما علق بها من أراء نقدية قد لا تكون دقيقة. «وسأتحدث هنا عن ثلاث قصائد وهي قصيدة «حمزة» وقصيدة «نبوءة العرّافة» وقصيدة «نداء الأرض»..

أما قصيدة حمزة، فهي تتعلق بحمزة طوقان، ولهذا فقد اتهمني البعض أنني أردت تمجيد آل طوقان، فلماذا أكتب عن حمزة وهنالك كثيرين غير حمزة كان لهم دور في المقاومة، لماذا حمزة بالذات؟!! والحقيقة أنني ما أردت سوى أن أرمز بحمزة إلى كل فلسطيني.. وأنا لم أسم القصيدة بأكثر من حمزة! ولم أزد على ذلك! وأنا أعرف حمزة معرفة جيدة.. ليس لأنه ابن عمي بل لأنه – فوق ذلك وأهم من ذلك – انسان ومناضل، فحمزة قسّامي قديم (من جماعة عز الدين القسام المجاهد المعروف) عندما ترك حيفا عام ١٩٤٨ كان شبه معدم، وفي نابلس عمل وثابر وكافح حتى تحسن وضعه الاقتصادي. وبعيد الاحتلال ١٩٦٧ بأيام، اتهم ابنه بالمساهمة في المقاومة المسلحة، فحكم عليه الصهاينة المحتلون بهدم بيته المكون من ثلاثة طوابق، فصعد إلى شرفة بيته، قبيل تنفيذ الهدم، وقال بأعلى صوته، وعلى مسمع من الجماهير التي تجمعت آنذاك؛ «الله أكبر! الله أكبر! أنا وأولادي فداك يا فلسطين!!» من هذه التجربة النضالية الفذة والصمود الشامخ والبلاء العظيم ولدت قصيدة حمزة التي أقول في بعض منها:

فتحّ الشرفات حمزة

تحت عين الجند للشمس وكبرّ

ثم نادى:

«يا فلسطين اطمئني»

«أنا والدار وأولادي قرابين خلاصك»

«نحن من أجلك نحيا ونموت»

وسرت في عصب البلدة هزة.

حينما ردّ الصدى صرخة حمزة

وطوى الدار خشوع وسكوت

★ ★ ★

أمس أبصرت ابن عمي في الطريق

يدفع الخطو على الدرب بعزم ويقين

لم يزل حمزة مرفوع الجبين..

أما قصيدة «نبوءة العرّافة»، فالرمز فيها إلى فلسطين بعد التقسيم، وإلى الفلسطينيين وإلى القضية الفلسطينية التي تتشابك في شخصية واحدة هي التي تتكلم هنا. هذه القصيدة تتحدث عن قايين (الفلسطيني) الذي سيخرج من رحم المعاناة، من الجلجلة سيبعث - ديالكتيكيا - من خلال اكتوائه بنار الكفاح.

هلاّ سألت لي الرياح يا

عرّافة الرياح

متى يجيء الفارس المنذور

-: حين يصيرالرفض

«محرقة وجلجلة»

«تلفظه أحشاء هذي الأرض»

«من جسمها بضعة»

«لكنما الرياح في هبوبها»

«اخوتك السبعة»

«تقول حاذري»

«اخوتك السبعة».

أما قصيدة «نداء الأرض»، التي لم يفهمها بعض النقاد، حين اتهمها بالسلبية، وهي لم ترد إلا الحديث عن رجل يعشق أرضه التي احتلها الصهاينة (١٩٤٨).. ولأنه يعشق أرضه.. حبيبته!! يعود إليها، يَنْشَدُّ إليها، كأنه مجذوب إليها بخيط سحري خفي!! لا يملك منها فكاكاً.. سحر الأرض، أو تعويذة الأرض ان شئت! هي التي تشده.. أجل يعود عاطلاً عن السلاح، وبيساطة كأنه يموت على هذه الأرض.. وهو يمرغ وجهه وكيانه فيها!! حين يطلق عليه العدو رصاصتين!! هذا ما يفعله العشق.. عشق الأرض، وهذا ما تقوله القصيدة: تصف تجربة ما؛ وقد أدت القصيدة غرضها من هذه الناحية؛ وقالت كل ما تريد؛ عن قصة هذا الرجل المريض عشقاً بحب الأرض إلى درجة الموت!

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها
يعانق أشجارها وضم لآلي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها خدّاً وفم
وألقى على حضنها كل ثقل سنين الألم
وهزت أنفاسها وهي ترعش رعشة حب
وأصغى إلى قلبها وهو يهمس همسة عتب
رجعت إلي؟!
-: رجعت إليك وهذي يدي
سأبقى هنا، سأموت هنا، هيئي مرقدي!

بدوي الجبل

بين يدي دراسة قيمة عن الشاعر السوري بدوي الجبل: محمد سليمان الأحمد - من قرية ديفة في جبل العلويين من أعمال اللاذقية. وهي دراسة تستمد قيمتها من فرادتها وخصوصيتها.. ذلك أنها حصيلة صداقة أو ما يسميه الكاتب الكبير الأستاذ أكرم زعيتر، وما جعله عنواناً للدراسة «أخاء أربعين عاماً».. فمما هو معروف أن أفضل أنواع السير أو التراجم أو تواريخ الحياة، هو ما نجم عن معاناة أو معايشة لمن تكتب عنه أو تؤرخ له.. بل أن وصف هذه المعاناة أو المعايشة المشتركة هو من أجمل وأجل صفحات الكتاب.. ذلك أن الرجلين الكاتب زعيتر والشاعر البدوي، تعاصرا وتلاقيا وعاشا معاً في أكثر من مكان.. فهما في العراق عندما كان العراق في الثلاثينات وأوائل الأربعينات قبلة القوميين العرب، بروسيا البلاد العربية، يحج إليها كل من نهل من مباديء القومية العربية في معانيها الصافية في الوحدة والتضامن والاخاء ومقاومة الاستعمار بأشكاله المختلفة البريطاني والفرنسي والصهيوني.

وهما معا بعد ذلك في سوريا ولبنان وفلسطين.. بل لقد شكل الطرفان جزءاً أصيلاً من مدرسة وطنية كبيرة ضمت كبار المجاهدين العرب في هذه الفترة نذكر منهم ولا نحصر: ابراهيم هنانو، وسعد الله الجابرين، وشكري القوتلي، ورياض الصلح، الحاج أمين الحسيني، وهاشم الأتاسي، ونبيه العظمة، وعوني عبد الهادي، وياسين الهاشمي، ومحمد على الطاهر، وفارس الخوري.

كل طاغ مهما استعبد ضعيف
كل شعب مهما استكان قدير
وهب الله بعض اسمائه للشعب
فهو القدير وهو الغفور

ويضيق المجال هنا عن الافاضة في أغراض شعر البدوي، فمن شاء الاستزادة فليرجع للديوان المطبوع للشاعر..

بدوي الجبل الناثر

علىأن بدوي الجبل ليس شاعراً مجيداً فقط، بل هو ناثر قدير أيضاً.. وأنت إذا وضعت شعره ونثره في الميزان وجدتهما يتعادلان أو يتوازنان! وهذه ظاهرة لا تتسق في عالم الأدب والشعر كثيراً. فأكرم زعيتر يقول أن البدوي عندما كانت تعوزه الحيلة ولا يواتيه شيطان الشعر، يستعيض عن ذلك بالنثر الرفيع الأنيق الذي لا يقل في مرتبته الفنية عن الشعر: بل انك لتستطيع القول أنه الشعر المنثور.. وهو في نثره يذكرنا بقول حافظ ابراهيم عن أحمد شوقي في شعره «كأنما يتناول الشعر من كمه بسهوله» فالنثر طوع قريحته انى شاء ومتى شاء».

وإليك هذا المقتبس من نثر بدوي الجبل في وصف مدينة دمشق التي عشقها وعاش فيها أصفى أيام حياته وأكثرها رغداً.. واستمر على عشقها وايثارها على غيرها من المدن في الغرب والشرق حتى آخر نفس في حياته:

«انها حورية من لحم ودم، وسحر وعطر، وأناقة ورشاقة، تطفر في القلوب حيناً، وتغفو فيها حيناً، وهي في حالتيها ترش القلوب بالطيوب، انها المدينة الحورية، المدينة التاريخ، المدنية المجد، المدنية الأم والأخت والحبيبة، عطرها مزيج من كل ذلك وحنين النفوس إليها حنين إلى كل ذلك».

ولعل من أروع نثر بدوي الجبل ما يتجلى في رسائل مع صديق عمره ورفيق دربه أكرم زعيتر فكلا الرجلين الشاعر الأديب والكاتب الأديب بث في رسائله إلى صاحبه خلاصة نفسه وحشاشة قلبه، وزينها برشاقة قلمه وفصيح بيانه وكأنه يتعمد أن يجعلها من ذخائر الأدب وليست رسائل مثل بقية الرسائل التي يتبادلها الناس..

فبعد رسالة يكتبها بدوي الجبل، عندما كان في المنفى في جينف، لأكرم زعيتر، وكان سفيراً في طهران، تتميز بابتهالات ونجاوى وتمنيات وذكريات عن دمشق تثار شجون أكرم فيحاول الرد عليها، ولا يواتيه الرد لأول وهلة، فيصيبه أرق ولا يواتيه نوم «ويمضي الزمن ويكتهل الليل حتى مطلع الفجر» ويعلل لبدوى الجبل تجربته هذه مع الحرف قائلاً: «ولعل عاملاً يتصدر دواعي التهيب هو اسلوبك الأرفع في انشاء رسائلك الماتعة، رسائلك التي تبلغ السدرة في الفصاحة وتزري في ديباجتها بأبلغ ما يمكن أن يكتب إليك.. رسائلك كنوز احتفظ بها ميراثاً أوصي أولادي بصيانته والاعتزاز به».

وهنا يرد البدوي رداً حلواً من نوع آخر «كتابك بين يدي ريحانة أشمها، وحورية من حوريات الجنة ألثمها وأضمها، وبعض البيان عطر وبعضه سحر، والكتابة منك

وإليك نفحة للنفس ونفحة للفكر، وما عند دوحة البحيرة في جنيف كهذا الرحيق العربي المصطفق بطيوب سعدي والخيام».

وفي مناسبة أخرى يكتب لأكرم «وشهد الله أني أرى بشرف أخائك، أثمن ما حصلت عليه في حياتي».

انزاله الشعر والفكر منزلة عالية

ولدى البدوي نقطة أخرى تشدك إليه وتجعلك تزداد اعجاباً بفلسفته ونظرته، تلك هي تقديسه للشعر والفكر وانهما هما الخالدان! الباقيان على الزمان وليس السلطة والصولجان! ذلك أنه وقد بلغ في عالم المناصب ما بلغ، إذ كان نائباً ووزيراً لفترة ليست قليلة، ظل يعتبر المكان الأول – وحيث ينبغي أن يكون – للفكر، ففي رسائله للرئيس العراقي المدفعي يقول: «وفي الحق يا صاحب الفخامة أن الحكم الذي يزري بكرامة الادب والفكر يزري بنفسه ويتحدى كرامته، أما الفكر والأدب فكرامتهما تظل رفيعة مصونة سامية».

وفي احدى المناسبات، عندما أبى سفير مصر في سوريا أن يصافح الدكتور طه حسين حين مد يده إليه، وذلك لأن طه حسين كان قد أدلى بتصريح يستروح فيه أن العهد لا يبيح الحريات! كان مما قاله البدوي الوزير في خطابه موجها الكلام إلى طه حسين « يفنى الرؤساء ويزول الحكام وتبقى أنت.. ويذهب العظماء ويبقى أدبك خالداً».

وهو الذي يقول «والعبقري إذا لم يكفر بعبقريته، ولم يكفر بنعمة الله عليه يرى نفسه نداً لكل عظيم، حتى لو انبسطت راية هذا العظيم على نصف الدنيا».

شهادات في بدوي الجبل

ليس الأستاذ أكرم زعيتر وحده هو الذي أنزل بدوي الجبل هذه المنزلة الكريمة والمكانة السامية في ميدان الشعر والنثر.. بل أن هذه المنزلة وهذه المكانة وصل الاعتراف بها – وإلى درجة القمة – إلى كثيرين من شوامخ الشعر والأدب في وطننا العربي من مشرقه إلى مغربه: فهذا الشاعر محمد مهدي الجواهري يقول: «انما أخشى من شعراء العصر وأحسب حسابه بدوي الجبل، أكبر شاعر في هذا العصر بدوي الجبل وشاعر آخر».

أما نزار قباني فيقول: «انه السيف اليماني الوحيد على جدار الشعب العربي، في عباءته ألف لبيد، وألف شريف الرضي وألف أبي تمام».

أما أدونيس فيقول: «ان بدوي الجبل هو أكبر شاعر كلاسيكي حي».

وقال الشاعر أمين نخلة: «بدوي الجبل أمير الشعراء وأوفى الاوفياء».

أما تقي الدين الصلح فقد بوأه أعلى مراتب الصدارة بين شعراء العربية على الاطلاق غابرين ومعاصرين: «ومن حقه أن يحشر في موكبهم الزاهي الفخم بدءاً بأصحاب المعلقات إلى شعراء صدر الاسلام والعصر الأموي والعصر العباسي حتى النهضة الحديثة وعمالقة شعرائها».

والزعيم المغربي التطواني الطيب بنونة يقول له: «جئت من المغرب الأقصى لرؤية شاعرنا الأكبر».

★ ★ ★

وبعد فإن المرء ليحمد للأستاذ أكرم زعيتر، أن وضع الشاعر بدوي الجبل بكتابه هذا عنه، في هذه المكانية الموضوعية – والسامية في نفس الوقت – أكثر من ذلك، انه جعل قراءة مثل هذا الكتاب متعة فنية وجمالية حقيقية.. ولكم يتمنى المرء لو رزقت كل موهبة فنية راقية في عالمنا العربي، بصديق وفي – عايشه أو عاش معه – وفنان مقتدر يوفيها حقها، ويبلغ في ذلك مبلغاً بحيث يدخلها محراب الخلود، كما فعل أكرم زعيتر عندما كتب عن اخاء أربعين عاماً مع بدوي الجبل.

انتقل الشاعر بدوي الجبل إلى الدار الآخرة في شهر أغسطس من عام ١٩٨١، رحمه الله رحمة واسعة في الخالدين.

والفرادة والخصوصية، يعززها إلى ذلك، ويسندها عدد وافر من المادة الوثائقية، فأكرم زعيتر من كبار الموثقين، فضلاً عن كونه من كتاب المذكرات اليومية المدققين المعدودين، وهو من هذه الناحية يملك أرشيفاً فريداً.. وقد زود في السنوات الأخيرة المكتبة الفلسطينية الوثائقية بمجلدات قيمة منها، هي الآن رصيد تاريخ نفيس لا يستغنى عنه كل مؤرخ أو باحث في القضية الفلسطينية.. وقد شهد له من هذه الناحية الأستاذ علي الطنطاوي الذي يأسف لأنه لم يفعل كما فعل أكرم زعيتر ولم يدون مذكراته يوماً فيوماً، وعندما أراد كتابة ذكرياته أخذها من الذاكرة، وفرق كبير أن تكتب عن

الأحداث والأشياء والناس من الذاكرة، وبخاصة عندما تكون قد بلغت من العمر مبلغاً، أو أن تنقل من مدونات أو مذكرات مكتوبة.

وبالنسبة لدراسة الاستاذ أكرم زعيتر عن بدوي الجبل فقد استندت على مجموعة من الرسائل المتبادلة بين الطرفين.. كتبت بمناسبات مختلفة وعلى امتداد أربعين عاماً هي عمر الاخاء والصداقة التي جمعت بينهما..

على هذه الأرضية من الفرادة والخصوصية التي قامت على أساسين متينين من المعايشة والتوثيق.. جاءت هذه الدراسة التي ليس من المبالغة في شيء أن نقول أنها كتبت بقلم متمكن ذي اسلوب مقتدر. فأكرم زعيتر، كما تشهد بذلك كتاباته، ويعرف له ذلك نقاده وقراؤه - ومن الجحود أن لا يفعلوا ذلك - هو امتداد لمدرسة الأصالة الأدبية، بل هو ركن ركين فيها، هذه المدرسة التي تتلمذت على الأمهات في تراثنا العربي، وتذوقت منذ وقت مبكر، ما هو مكنون في ذخائر اللغة العربية نثراً وشعراً، وتدربت على الكتابة البليغة المبينة: هذه المدرسة التي ضمت طه حسين والعقاد وهيكل واسعاف النشاشيبي والغلاييني.. التي ليس من السهولة بمكان الوصول إلى مستواها من معاناة التراث فضلاً عن المعرفة بالحديث من الفكر والأدب.. وممن شهد للأستاذ زعيتر بمقدرته على الكتابة الأدبية وامساكه بعنان الأدب والبيان بقوة الأستاذ العلامة شكيب ارسلان امير البيان.

ليس هذا فقط بل أن الدارس لسيرة البدوي بريشة أكرم زعيتر ليحس بأن أكرم زعيتر يتناول العلاقة مع صديق العمر تناولاً خاصاً، فيه كثير من الاحترام الممزوج بالاعجاب والمودة الخالصة.. هذه المعاني التي تبلغ في سموها درجة التقديس: فبالاخلاص نقول، أن روح الوفاء والولاء التي كتبت بها هذه السيرة هي من الاشياء التي نفتقدها في هذا الزمان، الذي كما قيل تغيرت فيه المودة والاخاء وقل الصدق وانقطع الرجاء! فأنت واجد في كل صفحة من صفحات الكتاب ترنيمة صلاة في محراب هذه الصداقة أو هذا الاخاء.

بدوي الجبل الشاعر

بعد هذه التقدمة، دعونا ندخل إلى محراب بدوي الجبل الشاعر: وشاعرية بدوي الجبل تتفتح في وقت مبكر.. ومنذ نعومة الأظافر - كما يقال - يقول الأخطل الصغير: «ان شعر البدوي أرجح من عمره» وأما العلامة الشيخ عبد القادر المغربي فيقول: «بدوي

الجبل تمردت عبقريته على ناموس التدرج فلم نعتم أن رأيناه في السابقين ومعدوداً على حداثة سنه بين الفحول المقربين».

حتى إذا تفتحت هذه الشاعرية مبكراً وولد الشاعر قوياً خارجاً على ناموس التدرج والتطور أتى في ميدان الشعر أسلوباً ومضموناً بما لا يملك المرء إلا أن يوافق صاحب الدراسة الذي هو أقدر على وصفها: عندما يقول: «انه (أي الشاعر البدوي) مخترع أخيلة وألفاظه أنيقة مصطفاة فصيحة تساير المعاني بشرافة وجزالة أورقة ولوناً، وكأن لها روحاً كما قال الشهيد سيد قطب، كثيراً ما سكب الحكمة في ثوب من جمال اللفظ معتبراً أن الحقائق مظاهر الكون». كما يقول في وصفهما أيضاً: «جودة اشراقة اللفظ، بداعة خيال، متانة لغة، عاطفة وعطور وطيوب وذكريات وأغاريد ونعميات وجوامح وثارات ونجاوي وهمسات وهموم وأطياف أحبة ودموع وآهات وعمق في تصوف وابتهالات»!

وأنت إذا أردت مثالاً على هذا الذي يذهب إليه الأستاذ أكرم زعيتر في اسلوب بدوي الجبل ومعانيه، فما عليك إلا النظر في مراثي بدوي الجبل، وهو فن أبدع فيه البدوي وأجاد وزاد، بحيث كان يعتبر كأنما عليه واجباً لازباً أن يرثي كل صديق من رجالات العرب أو من يسميهم «الرعيل الأول» ممن شاء لهم القدر أن يسبقه إلى الدار الآخرة. فهذه المراثي ليس مما ألفه الناس تحبباً وتعداد محاسن ولكنها تترى لأخيلة بصورة آخاذة، لأخوانه الراحلين تحمل اللوعة وتضفي على الحزن وسامة وسحراً، فقاريء رثائه لسعد الله الجابري الزعيم السوري والوطني المعروف لا يملك لا أن يتمثل صورة الجابري أمامه:

طلعة تفرح العيون وتسبيها
وتغزو القلوب كبراً ومجداً
بدعة الشرف والأناقة يرضيك
دعابا عفا، ويرضيك جدا
تنهل العين من بشاشة سعد
ريها والعيون تروي وتصدا
مترف في رجولته واعتداد
راع زياً وراع وجها وقدا

ولعل هذا المنهج في الرثاء هو الذي جعل أكرم زعيتر يقول: ما رأيت شاعراً عبقر الألم وجمل الهم ونضّر الحزن كالبدوي.

ولست المراثي إلا مثالاً سقناه، ولكن بدوي الجبل مكثر في أغراض شعره، ولعل من أجل أنماط شعره وطنياته، ومن بين هذه الوطنيات قصيدته المشهورة عن هزيمة ١٩٦٧ التي كاد الشاعر يدفع عمره ثمناً لها. والتي هي ليست قصيدة بمقدار هي «براكين وصواريخ وغارات ودموع وتنديد بحاملي وزر الهزيمة» والمتسببين فيها:

رمل سيناء قبرنا المحفور
وعلى القبر منكر ونكير
كبرياء الصحراء مرغها الذل
فغاب الضحى وغار الزئير

وفيها ينطق عن ضمير كل عربي عندما يخاطب الحاكمين فيقول:

ارجعوا للشعوب يا حاكميها
لن يفيد التهديد والتغرير
صارحوها فقد تبدلت الدنيا
وجدت بعد الأمور أمور
لا يقود الشعوب ظلم وفقر
وسباب مكرر مسعور
واتقوا ساعة الحساب إذا دقت
فيوم الحساب يوم عسير
يقف المتهمان وجها لوجه
حاكم ظالم وشعب صبور
كل حكم له وان طالت الأيام
يومان أول وأخير

السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة*

لعل من أجمل الأشياء لأن يوفق الباحث - أي باحث - إلى البحث في موضوع جدير بالبحث يحبه، أو يتعاطف معه. ومن هنا ينصح الباحثون دائماً باختيار موضوع يروق لهم، وذلك بالنظر لما سيتجشمون من عناء البحث، ومشاق الصنعة، ومفاجآتها... وما يتطلب كل ذلك من جهد ونصب وتعب لا سبيل إلا الصبر عليها إلا إذا شعر المرء بلذة المعاناة، ونشوة الاكتشاف، والسعادة الفكرية التي لا يجود بها عادة، إلا موضوع بينه وبين الباحث فيه وشيجة أو صلة روحية خاصة، تتطور أحياناً لتصبح معايشة كاملة، وقد تتطور - من خلال استمرار المكابدة والمعاناة - إلى تناغم كامل.. حتى لقد يصبح الباحث والمبحوث واحداً.. أو اقنومان في واحد!

ولعلّ هذه الصلة المتطورة والمعاناة المتناغمة هي التي أدركت الكاتب الباحث الأديب الدكتور أحمد حامد رئيس قسم اللغة العربية بجامعة النجاح بنابلس، عندما اختار موضوع بحثه، فأحسن الاختيار: اختار الأستاذ خليل السكاكيني الكاتب والأديب والمربي واللغوي موضوعاً أثيراً لرسالته في الماجستير، والتي نشرها مؤخراً في كتاب صدر عن جامعة النجاح (١٩٨٠). والتي هي موضوع هذه الدراسة ومنطلقها.

وحسن الاختيار نابع من أن شخصية السكاكيني فضلاً عن كونها شخصية فلسطينية صميمة حميمة، فهي إلى ذلك شخصية غنية، متعددة الأبعاد والامتاع والمناحي: أدبياً وفنياً، وعلمياً وثقافياً، وفوق كل هذا انسانياً..

وبهذه الناحية الأخيرة الانسانية سنبدأ وعليها سنسلط الأضواء. فقد اختص الكاتب هذا الجانب من شخصية السكاكيني باهتمامه العميق، ورسم لنا السكاكيني كأحسن ما يكون: لوحة انسانية نابضة مشعة حبيبة إلى النفس.. انساناً يعيش أولاً ليكتب ثانياً (وليس العكس!)، شأنه في ذلك شأن عمالقة الأدب في كل العصور من لدن شكسبير إلى أرنست همنجواي، ومن لدن طرفة بن العبد إلى ابراهيم طوقان. فكما قيل: ما يقوله شكسبير كأنه يفعله What Shakespear said he did . وغني عن القول أن المعاناة والانفعال بالأشياء والناس والطبيعة، انفعالاً فناناً أو فنياً، هي التي تولد في الروح ذلك التألق الفكري، والتناغم الوجودي السعيد، الذي يتحول إلى أدب أصيل وفكر حيّ راق.

---

* تأليف الدكتور أحمد حامد.

رسم الكاتب بريشته الدقيقة السكاكيني - كما وصف هو نفسه - انساناً محضاً! انساناً «خوشبوشياً» ان صح القول، انساناً درويشاً على باب الله! يكتب على بطاقته - أي السكاكيني - «خليل السكاكيني انسان ان شاء الله»! فهو يأخذ الحياة على علاتها، ويعيش أحياناً معيشة الصعاليك، بل ان الكاتب الدكتور حامد ليفرد مرحلة في حياة السكاكيني يطلق عليها مرحلة الصعلكة وان السكاكيني - مثل الشنفرة والسليك وطرفة - عاش صعلوكاً حتى عام ١٩٢٦! ولقد كان للسكاكيني وصحبة مقهى يرتاده في ظاهر القدس، لم يحلُ له إلا أن يسميه: مقهى الصعاليك! وذاع صيت هذا المقهى واكتسى من معنى الصعلكة «الفنية» أهمية خاصة حتى صار معلما من معالم القدس! بلد السكاكيني.

والسكاكيني إلى ذلك، يتغلغل في قلب الطبيعة ويتفاعل مع أسراراها، فالفن والطبيعة في نظره شيء واحد! وهو كثيراً ما يسّرح النظر والوجدان في جمال بلاده.. وجمال الريف الفلسطيني، اللوحة الربانية المتألقة، بصورة خاصة. ويقول كأنه في صلاة: «ترسل الطرف هنا وهناك، فتود لو تعيش العمر كله، في يقظة مستمرة، ولا يغمض لك طرف لتمتع ولتشبع».

وارهاف حسّ السكاكيني، أداته في التذوق، لا يعمل فقط باتجاه واحد، تجاه الجمال الطبيعي، وانما يتجلى أيضاً بعاطفته الصادقة الاصيلة نحو الأهل والناس. فقد وهب السكاكيني قلباً كبيراً محباً شفوقاً: فقد أحب ابنه سرياً - كما وصفه زكي مبارك - إلى درجة العشق. قال مبارك: «والذي يقرا رسائله إلى سريّ (ولده) أثناء وجوده في أمريكا طلباً للعلم يتضح له أن هذا الحب صورة من عاشق لمعشوق».

كما أن السكاكيني عشق إلى درجة الوجد أو الوله والهيمان زوجته سلطانه «أم سري»، واتخذ لها من قلبه عرشاً! وكان يناديها بسيدتي، صاحبة الجلالة! وعندما رحلت عنه إلى الدار الآخرة، رثاها رثاء حاراً يذكرك بمراثي كبار شعراء الرثاء في الأدب العربي كابن الرومي وغيره.. أجل رثاها رثاء اليتيم وقد تقطعت به الأوصال! وافتقد أباه وأمه والأهل جميعاً!

(لم يفجع السكاكيني بزوجته وإنما فجع بابنه سري كما فجع بوطنه!). ومن هنا فقد شعر بفراغ وجودي لا يمكن أن يعوض. ومن هنا فقد تميز رثاؤه بلوعة خاصة، وبنفس حزين حزين، ميتافيزيقي في حزنه.. غاضباً في حقيقته. فبعد أن كتب على لوحة

في مكتبه «لن نرضى!» قال أيضاً: «أتريدون مني أن أنسى أم سري.. كان يجب أن أنسحب من الدنيا وأهيم على وجهي إلى أن ألقى حتفي، ألا لست في حاجة إلى أن يوصيني أحد بالصبر.. وانما أنا في حاجة إلى من يشاركني في البكاء!».

أكثر من ذلك، لقد أفرد السكاكيني كتاباً لرثاء زوجته سلطانه أسماه «لذكراك»، وكتب تحت صورتها فيه «وإني لتعروني لذكراك هزة!»

ولدى السكاكيني، إلى ذلك، روح متجملة، فرحة، تشعر باللحظات الانسانية المدهشة، وتستشعر الجمال في الأشياء الصغيرة، وتفرح كطفل صغير، فهو يقول: «كن ولداً ما استطعت» وهو يضحك من الأعماق، ويتمثل بشعار الفيلسوف سبنسر «لن أشيخ!» ويحلو له أن يردد المثل الانجليزي «اضحك تحيا». ويأخذ الحياة ببساطة مطلقة، ويستشهد معتزاً ومرحباً بقول زوجته التي تعاني – مثله – لذاذات الحياة السهلة، القليلة التكاليف «أحب أن أجلس وأمشي، أحب أن أرى الحديقة، أحب أن أشرب شربة ماء من البئر على نفس واحدة». وهو الذي يقول أيضاً «أحب أن أسمع الليل كله وأرقص حتى الصباح».

وصف الكاتب كل ذلك. ولعله وفق أكثر من ذلك عندما عرّج على جوانب الابداع الأخرى في شخصية السكاكيني العامرة الفياضة بالفن والخير والجمال فتحدث عن:

– السكاكيني المثقف الواسع الثقافة الذي يستمد ثقافته (والمرء ابن ثقافته) من معينين أصيلين: المعين العربي.. فقد درس السكاكيني الأمهات في الادب والفكر العربي: وعاش مع الجاحظ والكلبي والغزالي والأصمعي.. ولكن المتنبي هو الذي استأثر باهتمام السكاكيني الأكبر. أجل لقد أحب السكاكيني المتنبي واستشهد به في كل مناسبة، وأعجبه بشكل خاص شعر الغضب والقوة عنده. وقد كان انفعاله وتفاعله مع المتنبي هو العجب العجاب! حتى أن الدكتور حامد ليقول: «فكأن المتنبي – إذن – قد عاد إلينا في ثوب السكاكيني!» ولو رحنا نختار للسكاكيني دستوراً نفسياً – ان صح القول – في حياته، لاخترنا ذلك البيت الذي كثيراً ما استشهد به السكاكيني، واختارته ابنته هالة السكاكيني، عنواناً لمذكراته، ألا وهو:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي

ويا نفس زيدي في كرائهها قدما!

ولم يكتف السكاكيني بأن أرسى جذوره العميقة في التراث، وانما التفت بقوة إلى الأدب العالمي، والانجليزي منه بصورة خاصة، واعتبر الأدب الانجليزي من المواضيع الرفيعة، ولقد صنعت هذه الثقافة العريضة العربية والغربية، بالاضافة إلى موهبته الفذة، السكاكيني الكاتب، وانعكست في كتاباته وأكسبته مكانته الخاصة بين الأدباء المعاصرين: الجمع بين السلفية والمعاصرة في مزاج أصيل.. دعونا نقرأ وصفه لكتابه «مطالعات في اللغة والأدب» حين يقول «كتاب سيكون قنية كل أديب، وحلية كل مكتبة، وجائزة كل تلميذ، سيدخل في جهاز كل عروس، سيرثه الأبناء عن الآباء، سيعد في الذخائر والنفائس» أرأيتم وصفاً أثمن للكتاب الجيد وقيمته من هذا الوصف؟!

– السكاكيني المربي الفلسطيني الرائد، صاحب الفلسفة الكلية في التربية، الفلسفة التي تريد النهوض بالعقل والجسم والروح.. فهو بمقدار ما يهتم بالعقل فيغذوه بالفكر القويم والثقافة العميقة، يهتم بجوانب الوجدان فيغذوها بالفن وضروب الجمال، كما أنه لا ينسى الاهتمام بالجسد.. وهو يصف نفسه بأنه جماع متناسق وتجسيد حي لفلسفته الكلية في التربية في ظاهر شخصيته وباطنها: يقول: «ان لاسلوبي في الحياة باطناً وظاهراً: ظاهره ألعاب واستجمام وأكل وقوة ونشاط ولهو وسرور، أما باطنه فطهارة قلب، وصحة عقل، وحرية فكر، وسمو نفس، ومكانة أخلاق، وجمال وذوق وسلامة نية، فإذا اكتفيت بالظاهر فقد أسأت فهمي».. ولعمري ان كلمات السكاكيني هذه لجديرة ان علقت على يافطة في أي معهد تربوي، أو منتدى فكري أو أدبي، في أي مكان في الدنيا، لجديرة أن تنال الاحترام وتكون دستوراً هادياً ونبراساً موحياً.

غاية الأمر أن الكاتب نقّب عن جوانب الريادة في هذه الشخصية السكاكينية الفنية، التي لم تترك فناً إلا وأسهمت فيه، وحرصت على الابداع ما وسعها، تلكم الريادة التي تتمثل في دفاع السكاكيني الانسان عن حرية التلميذ: فهو يريد أن يوجد التلميذ الحر، ويحارب اذلال التلميذ: «واني أشكر الله أني أول من نادى في هذه البلاد بتحرير التلميذ، وبناء تربيته على اعزاز التلميذ لا اذلاله». والدارس لا يستطيع تقدير هذا التوجه للسكاكيني، إلا إذ رجع للوراء خمسة عقود من الزمان، عندما نادى السكاكيني بهذه الأراء الرائدة، وكان الضرب في المدارس ضربة لازب! – ولعله لا زال في بعض القطاعات! – عند ذلك يدرك أن السكاكيني المربي سابق لزمانه، متفوق على أقرانه بآماد وأجيال.

ولعل السكاكيني وهو الذي سافر، وشرّق وغرّب، ونهل من معين لا ينضب، مشاهدة ومكابدة ومعاناة، قد تأثر بنظرية الغربيين التربوية- والتي لها مندوحة في تراثنا - وما قام به وما دعا إليه هؤلاء عندما أدركوا قيمة الطفل في حياتهم، فنظروا إليه كمخلوق ملائكي، أظلّ عليهم، أو أنه وصل إليهم على التو، من عالم بعيد بعيد! فاحتفلوا به كل احتفال.. وأولوه من الاهمية الانسانية كل اهتمام، ونظروا إليه بدهشة كهدية إلهية ربانية لا ينبغي أن تخدش أو يساء إليها.. وكان السكاكيني بفطرته القومية، ونظرته السليمة، ممن دعا أن نولي أبناءنا هذه النظرة الرحيمة.. وأن نعامل طفولتهم الجميلة بما تستحق من حب وعناية ورعاية.

وأنت - إلى ما مرّ - تلمس جوانب الريادة في شخصية السكاكيني عندما تقرأ رسائله إلى سريّ ابنه، وقد رحل إلى الولايات المتحدة لينهل من رحيق العلم، وكان السكاكيني قد سبقه إليها وعاد بعد أن عرف الحياة فيها عن كثب. هنا تجد أنه ينصح ابنه بأن يفيد من المناهج التربوية الاميركية، ويغرق في ثمارها الحضارية حتى الأعماق! ويكسب من خلال المعاناة اليومية للأشياء الخبرات والمهارات البناءة. وهو يدعوه إلى أن يغنم تلك الشخصية الحيوية التي كان يلمسها ويشاهدها لدى الطلاب في الولايات المتحدة، وهم يتراكضون ملأى بنشوة الحياة بين مقاعد الدراسة وملاعب اللعب ورياضه وبرك السباحة. وهو أمر أصبح معروفاً في فلسفة التربية الأمريكية التي تريد أن تجعل من المدرسة جنة ومعين حياة ومتعة للأنسان، وليس سجناً.. ولعلّ هذا يصدق على المدرسة الانجليزية في التربية، التي ترى أنها تكسب المعارك من الملاعب.. من ملاعب ايتون وغيرها. أي أن الشخصية المقتحمة المتحدة القوية المفعمة بالرجولة والصمود انما تصنع على أرض الملعب وفي أرجاء المدرسة الحانية أولاً..

- السكاكيني اللغوي: أما في اللغة، فإن المؤلف الدكتور أحمد حامد، وهو اللغوي الذي تشكل اللغة له بعداً مركزياً في اهتماماته، أقول ان الدكتور حامد يتحدث عن السكاكيني اللغوي الذي يعشق اللغة العربية بأدبها ونحوها وصرفها.. ويعرض لأدائة ومناهجه في تناول فروعها، فهو - أي السكاكيني - مثلاً يدعو إلى تيسير قواعد اللغة، كما أنه يتفنن في الحديث عن فقهها وجمال الاشتقاق فيها، كما أنه يدعو إلى تعزيزها في نفوس الناشئة، وأن تكون العربية هي لغة التعليم، فلا ينفرد بها أستاذ دون آخر، وبعبارة أخرى كل أستاذ مسؤول عن اللغة

★ ★ ★

وبعد فلقد جمعت شخصية الأستاذ السكاكيني فأوعت! وجاء الدكتور حامد فتحدث عن هذه الشخصية، في كتابه القيم، فألمّ بجوانب متعددة منها، فوفاها حقها إلى حد بعيد. ولا نعدو الحق والحقيقة حين نقول، أن المؤلف بالرغمِ من اتساع الميدان الذي اقتحمه، إلا أنه تمكن من تغطية دراسته له خير تغطية. فعالج بنجاح: تاريخ حياة الشخصية. كما وقف وقفة تحليلية عند آثار هذه الشخصية، ودرس دراسة ناقدة مقارنة الأراء والقناعات والتوجهات الفكرية لهذه الشخصية في اللغة والتربية وألادب والتدريس الخ.

ولقد استكمل الباحث لبحثه عدته فعاد إلى مصادر ومراجع كثيرة، منشورة وغيرمنشورة، وحاول أن يكون شاملاً كما تقتضيه منهجية البحث وأصول الدراسة العلمية، وعلى هذا فقد اكتسب بحثه قوة وغنى..

وفضلاً عن ذلك فإن الكاتب عانى الشخصية التي كتب عنها - ان صح القول - وتعاطف معها حق التعاطف.. فلم يكتب عنها من الخارج، وانما تغلغل فيها إلى الأعماق، كما درس الظلال فيها - الخيوط البيضاء والسوداء وما بينهما - فجاءت دراسته نسيجاً متكاملاً متينة الخيوط دقيقة النسيج.

واننا لنحمد للكاتب أنه لجأ إلى الاسلوب النفسي، اسلوب فهم الشخصية ونتاجها فهماً خاصاً، يعتمد على علم النفس والعلوم الأخرى الانسانية الحديثة، وهو اسلوب ملائم لدراسة الشخصيات الفنية بصورة خاصة، وأمر أساسي في كتابة التراجم.

وإلى هذا فإن اسلوب المؤلف، يمتاز من حيث الشكل بأنه أسلوب جميل، ذو ديباجة رقيقة.. اسلوب أحسن ما يمكن أن يقال فيه أنه اسلوب وسط.. وهو الاسلوب الأمثل للبحث، ليس فيه اغراق في التنميق والتزيين كما أنه ليس اسلوباً سريعاً مبتسراً، وانما هو اسلوب رائق نضيج رشيق. ولدى صاحبه مقدرة على ترتيب المداخل والمخارج، والبدايات والنهايات في الفقرات والأفكار والفصول، هادئ ومعبر، يخاطب القارئ العادي كما يخاطب القارئ المختص.. وصف الدكتور حامد اسلوب السكاكيني وتوجهه الحزين فقال: «وأما اسلوبه في الكتاب فإنه يكثر من الاقتباسات والاستشهاد بالشعر، فضلاً عن أن ألفاظه وعباراته مبللة بالدموع» وهذه عبارة تتحدث عن نفسها في وصف اسلوب المؤلف الحساسّ!

ولكن ما يمكن أن يؤخذ على الكاتب، هو أنه قصير النفس في المناقشة، ميّال إلى

الايجاز فيها، فهو يغطي القضايا التي تستحق منه الوقوف الملي والاطالة المعقولة، حتى يعطيها حقها، أقول يغطيها بسطور قليلة، وينصرف عنها لا يلوي على شيء! وكان ينبغي له أن يناقش مما لا مندوحة له عن مناقشته، ولعلّ من هذا القبيل أن الكاتب طغى - بالرغم من روح الانصاف الواضحة لديه - على من يكتب عنه في بعض المواقف بدون أن يستدل استدلالاً وافياً على ما يذهب إليه، كمثل زعمه أن السكاكيني لم يصنع رأيا لاصلاح البلاد غير الراقية، وأنه يدفع قول من قالت عن السكاكيني في محاضرة لها، أنه - أي السكاكيني - كان يتعاطف مع الاتحاد النسائي، ولا يأتي بدليل يؤيد هذا الدفع.

ومهما يكن من أمر فإن هذا النقد أمر لا يقلل في كثير من قيمة الكتاب، وما حقق فيه الكاتب من اضافة طيبة ومثمرة سدّ فيها - أو ساهم في سدّ - فراغاً في المكتبة العربية.

بقي أن أختم مقالتي بهذا السؤال: هل قيل كل شيء حول شخصية السكاكيني؟ أظن أن الاجابة على هذا السؤال هي السلب! بالرغم من جهد الدكتور حامد ومن سبقه. والدكتور حامد نفسه يشير إلى هذه الناحية، بتواضع العالم، حين يقول في مقدمة كتابه: انه بدأ دراسته من حيث انتهى الآخرون. ومن هنا فإننا ندعو الباحثين إلى استكمال جوانب لم تبحث في هذه الشخصية، أشار إلى بعض منها، وبخاصة الجانب التربوي، المؤلف نفسه. ولعلّ ما يدفعنا إلى المزيد من البحث في السكاكيني، ما يلمسه قارئ هذا الكاتب، من أن هنالك كنوزاً من المادة لدى السكاكيني، التي يمكن أن تتولد عنها الأبحاث، وتزيد في فهمنا لنابغة فلسطينية، هو مرآة لعبقريتنا العربية وشاهد صادق على نهضتنا الثقافية المعاصرة. فإلى مزيد من الدراسات والاستقصاء لهذه الشخصية وأمثالها ندعو شبابنا وباحثينا...

محمد خليفة التونسي

رحل مؤخراً الاستاذ محمد خليفة التونسي، فعز رحيله على الكثيرين من محبيه، وعارفي فضله، أديباً وشاعراً ولغوياً وفوق كل ذلك انساناً. ونحن إذ نكتب هذه السطور، بين يدي رحيل هذا الأستاذ الجليل، لنرجو، عندما يأذن الله أن نوليه حقه من الدراسة والعناية التي هو بها حري وجدير.

كان الأستاذ التونسي رحب النفس، نقي السريرة، طاهر القلب، فيه شفافية تجعله قريباً إلى القلب، خفيفاً على الروح والوجدان. لم يستثقل منه موقف. لديه براءة عجيبة أقرب إلى براءة الأطفال، هذه البراءة التي هي ميزة الفنان، وأكسير السعادة لناشديها ومريديها، ولكنه لا تنطلي عليه الحيل، وهو إلى ذلك متسامح يحب الناس جميعاً بدون تفريق أو تمييز، يتسامى على كل العقد من مثل الطائفية والأقليمية والنعرات الفئوية والحزبية. يكره المظاهر والوجاهات الزائفة، ويؤثر البساطة واليسر والسهولة. ولعل من مظاهر هذا التسامح، هذا التدين الأصيل الذي ينأى به عن التزمت والتطرف، بل يسلك فيه الأمر الوسط ، ويعيش من خلال تجربته الربانية، ونفحاتها العلوية، لا يريد من ذلك جزاء ولا شكوراً من أحد، حسبه اطمئنان نفسه ورضا ربه.

وهو إلى كل ذلك كريم، ذلك الكرم الفطري، الذي تفرضه عليه طبيعته الصعيدية «نسبة إلى الصعيد»، ومعدنه الخيّر النفيس، فلم يكن يصد قاصداً أو محتاجاً، وكان الاخلاص للصداقة والصديق والتضحية من أجلهما طبعاً أصيلاً وغريزة متأصلة فيه.

تكوينه الثقافي والفكري

نهل الأستاذ التونسي من معين التراث حتى ارتوى، فقد درس القرآن في مدارس حفظ القرآن «الكتاتيب» في قريته تونس من أعمال جنوب مصر، حيث ولد عام ١٩١٥، ثم درس في المعاهد الدينية، فالأزهر الشريف ثم التحق بدار العلوم وتخرج منها عام ١٩٣٩. ثم أنه حصل على شهادة الماجستير في التاريخ عام ١٩٥٤ من جامعة القاهرة. وهو إلى‌ذلك محب للاطلاع والتنقيب في كتب الأمهات في اللغة و الأدب والتاريخ والتراث بعامة. دؤوب على حضور مجالس العلم وصحبة العلماء.

وحقيقة الأمر أنه كان للأستاذ التونسي اهتمام أصيل بالعلم غذاه لديه توجه فطري وميل ذاتي، وتشجيع من والده بصورة خاصة. فكما يذكر في مقدمة ديوانه «رباعيات التونسي» أن والده كان يقول له دائماً، أنه نذره للعلم، ويوحي إليه أن العلم أشرف مطلب في الحياة.. ويستشهد بقول الغزالي: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

ويصف هو نفسه بهذا الوصف الذي يتحدث عن نفسه: «وحببت إلي المعرفة حتى صرت من عشاقها، ولا أكف عن طلبها في كل زمان، ومن كل جهة بقدر ما تسعفني مواهبي وفراغي، ولا أعدل بها مطلباً بما يطلبه الناس في حياتهم رغبة في الشرف والكرامة والصلاح».

ولعل مما رسخ المقدرة اللغوية وأغنى النزعة الأدبية لدى التونسي، هو هذا المحصول الكبير من المحفوظ الشعري، الذي أسهم في صقل موهبته، وتقويم لسانه، وأضاف كثيراً إلى نبوغه وتفوقه الفطريين. فقد كان يحفظ الشعر، كل ما يستطيع منه، ويرتله في محضر أبيه، ولا سيما الشعر الصوفي والديني والمدح النبوي. فقد كان والده يعتبر حفظ مثل هذا الشعر قربة يتقرب بها إلى الله. وهو يذكر أنه من خلال هذه الطريقة وهذا المنهج، استوعب كثيراً من قصائد البوصيري، وابن الفارض وأمثالهم من أصحاب المدائح النبوية والقصائد، وكذلك قصائد الشعر الحماسي وقصائد النسيب وغيرهما من فنون الشعر العربي. وهو وسط كل هذا، وعلى هذه المائدة الغنية من التراث، يشعر بسرور – لا يعادله سرور –، ويحس بنشوة عجيبة لا تعدلها نشوة.

ولعل من دلائل التوفيق، ومما هو أيضاً ذو مغزى حضاري وتربوي كبير، أن جائزة أبيه إليه عندما نجح في شهادة البكالوريا «الثانوية» كانت طبع أول ديوان للأستاذ محمد خليفة التونسي على نفقته.

علاقته بالعقاد

ويظل أن نتحدث عن صلته وتوصله بالأدباء والعلماء والشعراء وفي هذا المجال، الذي هو ضروري لكل مبدع، واستاذ في فنه، فإن أي مؤرخ للأستاذ التونسي لا بد أن يتعرض لعلاقته بالأستاذ عباس محمود العقاد. هذه العلاقة التي اشتهر أمرها، وضرب بها المثل لما يكون من وفاء وولاء وانتماء بين الصديق والصديق.. والشيخ والتلميذ.. فقد قيل

أن حبه للعقاد كان يفوق حبه لأصدقائه جميعاً. كما أن مكانته لدى العقاد جعلت منه أقرب تلاميذ العقاد ومريديه إليه.. وأنت مدرك لعمق هذه الصلة من رد فعله على موت أستاذه العقاد. فقد رثاه بقصيدة بلغ طولها أربعمائة وأربعين بيتاً. وقال أنذاك يعبر عن شعوره بفقده: «ثم كنت مشغول القلب في ثكله بما هو أفظع وأهول، مما لم أجرب مثله في ثكل شقيقي أو أمي أو أبي أو ابني، وأعرف أني حزنت عليهم أكثر مما حزنت عليه. وكنت أخال وفاة كل منهم في وقتها قاصمة الظهر وفساد العمر، ولكن وفاة شيخي أحرقت من قلبي ثم زعزعزت من يقيني ما لم أجد مثله في وفيات أرحامي - رحمهم الله.

ويحدثنا الأستاذ الأديب يوسف زعبلاوي، وهو من أصدقاء الأستاذ التونسي، والتقيا معاً حقبة غير قصيرة في العمل في مجلة العربي، أنه لم يكن أحد في المجلة يجرؤ على تناول العقاد بنقد أمامه، مهما كان نقده خفيفاً.. كما لم يكن أحد يجرؤ على تفضيل طه حسين أو غيره من الأدباء والشعراء على العقاد، كأن العقاد من هذه الناحية كامل لا يمس!!

ولعل الأستاذ المرحوم أحمد زكي رئيس تحرير العربي الأسبق كان يعرف هذه الناحية في تكوين الأستاذ التونسي، فكان ينأى عن أن يخوض في مفاضلة بين العقاد والأدباء الآخرين أمامه حرصاً على مشاعره.. وتقديراً لأحساسيسه.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموقف من التونسي، ربما كان نابعاً في بعضه، من رواسب خصومة أدبية ثارت يوماً بين العقاد وخصومه من الأدباء والشعراء.. وبلغت حدا ملأت الدنيا وشغلت الناس في عالم العروبة الواسع، حتى لقد استشرى أوارها أكثر من المنازعات السياسية، ومن هذه خصومته مع طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن شكري وآخرين.

وعلى ما يظهر فقد انخرط الأستاذ التونسي في هذه الخصومات الأدبية وأدلى فيها بدلوه وكان له فيها باع طويل! فقد حدثني - رحمه الله - بينما كنا عائدين من حضور ندوة اللغة التي أقامها قسم اللغة الانجليزية في نادي الشويخ، أنه رد على زعم طه حسين أن امرؤ القيس لم يوجد بالفعل، وأنه اسطورة اخترعها الخيال الجاهلي! - قال ذلك ولعله كان يدرك أني، ومثلي الكثيرين في الوطن العربي، لست من جاحدي فضل طه حسين على الأدب العربي - وأضاف التونسي أنه قال فيما قال في رده ذاك، ان امرؤ القيس في

الحقيقة أكثر وأصل وجوداً من طه حسين نفسه! وأن طه حسين، أيضاً، يفتقد إلى النسق الثابت في تفكيره..

من أجل هذا فقد ترسبت في أعماق وجدانه هذه الخصومات.. بحيث زادت.. في حبه والتزامه بطرف، وهو العقاد، وزادت في نفوره وابتعاده عن طرف آخر، وهم خصوم هذا الطرف - أي العقاد - وعلى أية حال فالأمر في هذه الخصومة كلها، أصبح الآن تاريخاً من التاريخ.

وبعد، فقد رحل عنا الاستاذ التونسي وأفضى إلى ما قدم، وهو الآن عند ربه، وحسب هذه الكلمات أنها عبرت ، وتعبر عن تقديرنا لأستاذ جليل ولغوي وأديب وشاعر وانسان كبير، وبهذه المناسبة فإني أغتنم هذه المناسبة لأدعو من هذا المنبر أصدقاء الأستاذ التونسي ومقدري فضله للكتابة عنه، ذلك لأن الاستاذ التونسي لا توجد له سيرة حياة معتمدة، فلعل كتابة القادرين على الكتابة عنه، تتجمع ويبارك الله فيها فتقوم، أو تصبح هي السيرة المعتمدة لهذا الاديب الراحل.

رحم الله الأستاذ التونسي جزاء ما قدم لأمته العربية وتراثه الاسلامي رحمة واسعة...

عطاؤه الفكري والأدبي

بهذه الخلفية الثقافية المكينة، وبهذه الموهبة الرصينة، لا نعجب أن يفيض الاناء بهذا الخير الكثير، والعطاء الكبير في مجالي الشعر والنثر واللغة والاسلاميات. يبدع فيها الاستاذ التونسي، ويضيف اضافات جادة، جديدة ومفيدة.

ففي مجال الشعر ترك لنا الأستاذ التونسي عدة دواوين. وأول ديوان له عنوانه العواصف. وله ديوان آخر بعنوان الفيصليات «نسبة إلى الملك فيصل الأول ملك العراق» وله ديوان ثالث هو «رباعيات التونسي».

ولعل الميزة الأساسية في شعره، أنه شاعر مطبوع يقول الشعر بدون تكلف أو اصطناع، وإذا كان بعض النقاد يرون أنه تأثر بأسلوب العقاد في بعض شعره، فأولى المعنى والعقلانية اهتماماً خاصاً، فإن نقاداً آخرين يرون أنه ربما كان أكثر شاعرية من العقاد نفسه، فالعقاد مشهور بقوة عارضته في كتابة النثر وليس الشعر.. ولله در الناقد اللبناني المعروف مارون عبود الذي كان يقول دائماً: ان العقاد أكثر شاعرية في نثره منه

في شعره!!

وأنت إذا أردت مفتاحاً لشعر التونسي، فما عليك إلا أن تقرأ مقدمة رباعيات التونسي التي وضعها الشاعر نفسه، فلا شك أنك ستدرك أنذاك منهج التونسي الغالب في قول الشعر، وبخاصة الرباعيات التي اشتهر بها دون ضروب الشعر الأخرى فهو يقول:

«الكون عمل إلهي فيه آيات مبدعة، فيجد كل انسان منها بقدر مواهبه الفطرية، وتزداد مواجده بقدر كثرة تجاربه وعمق خبراته، وهذا لا يمنع من أن ينظر الانسان إلى الكون نظرة علمية أو فلسفية أو رياضية كلما نظر إليه من خارجه، ولكنه أصدق شعوراً به وادراكاً لأسراره حين يستبصره ويتأثر به وهو فيه متصلة جذوره بجذوره، نابض السرية على وفق نبضاته.

وهذا الشعور مطرد في هذه الرباعيات وغيرها من شعري، وسائر آثار قلمي، كما هو مطرد في حياتي اليومية لا يفارقني ولا أفارقه و «كل يعمل على شاكلته» و «كل ميسر لما خلق له».

إذن فشعر الأستاذ التونسي، هو نتاج الاحساس المرهف للفنان، هذا الاحساس الذي هو انعكاس للتجربة في مجالي المادة والعقل والروح، والذي هو أيضاً معاناة كيانية كاملة للاتصال العميق والمطلق بالكون: أسراره ونواحي الابداع والجمال الساحر الأخاذ فيه، إلى درجة عالية من الغرق في ملكوت هذا الجمال والابداع، تصل إلى مستوى ربط النبض الانساني بالنبض الكلي لهذا الكون العظيم.. والانطلاق من هذا المستوى العظيم من الربط والرابطة! انها معاناة جوانيه عميقة.. وليست معاناة برانية خارجية.. تمس أس الوجود ولبابه وسره وليس سطحه وقشوره!

واليك شاهداً على ما يقول، ونقول:

كم معان يحسها الشاعر الموهو
ب وحيا من خلاف ألف حجاب
يتلقى طيوفها من أقاصي الكو
ن وترى كالحلم أو كالسراب

أو يراها كأنها رأي عين
سارات موصولة الأسباب
هو في قلبه يرى كل شيء
حوله، والقشور فيض اللباب

أما في مجال الأدب والنثر عموماً فله كتب: «التسامح في الاسلام»، و «العقاد دراسة وتحية»، واعادة كتابة: «عبقرية جيته للعقاد»، و «تأملات حرة».

واسلوبه في النثر، اسلوب متميز أيضاً، ولعل أفضل ما يمكن وصفه به، ما وصف به نثر ابن المقفع، وهو من كبار الأدباء في صدر الدولة العباسية، السهل الممتنع، ويشبهه البعض باللالئ المرصوفة في عقد، ولا تستطيع بسهولة أن تزحزح كلمة من موضعها، بدون أن ينفرط العقد كله، وفي رأي كثير من النقاد أن عبارة الأستاذ التونسي عبارة فريدة ليس أروع منها. وهو يفاجئ قارئه بكلمات وعبارات يستعملها هو، وربما لأول مرة، حتى إذا رحت تستشير القاموس تبين لك أن الأستاذ التونسي على حق. وأنه ربما كان يتعمد الاتيان بمثل هذه الكلمات، أو أنها تأتي عفو الخاطر، وليس من أجل الاغراب في اللغة، واستعراض المقدرة فيها، وانما من اجل أن يكشف عن مكنون لغتنا الجملية.. ولعله يريد أن يعلم الناس ما غمض أو أنبهم عليهم من أمر لغتهم بعيداً عن أي مظنة أخرى.

ومع هذا فالأستاذ التونسي، في منهجه اللغوي ميال إلى التيسير، ففي تعقيب له على محاضرة الدكتور سامي الرباع، قبيل رحيله بأيام، قال: أنه ممن ثاروا على تزمت النحويين.

البروتوكولات وشهادة العقاد

وفي مجال الترجمة، فإن الاستاذ التونسي أضاف لتراثنا اضافة فريدة عندما ترجم «بروتوكلات حكماء صهيون» الذي تركت ترجمتها أثراً كبيراً في المجال العربي، بالنظر لما كشفت من أساليب الصهيونية وسعيها الرهيب في السيطرة على العالم بما تلجأ إليه من أساليب الابتزاز واغراق العالم في أوحال الفساد الأخلاقي في كل درب من دروب الحياة. وقد وفق الأستاذ التونسي في ترجمته لهذا الكتاب القيم والذي أحدث ضجيجاً عظيماً في العالم وأضفى عليه من اسلوبه بحيث اصبحت قراءته في حد ذاتها متعة، كأنما

لا تقرأ أدباً سياسياً مترجماً، وانما تقرأ انشاء عربياً مبيناً. فهو قد حافظ على فصاحة الترجمة وسلامة العبارة فيها بمقدار ما كان أميناً على نقل المعاني نقلاً يكاد يكون حرفياً. وقد وصف الأستاذ العقاد هذه الترجمة في مقدمته لها بقوله: «نقلها الأديب المطلع - الأستاذ محمد خليفة التونسي -. وحرص على ترجمتها بغير تصرف يخل بمعناها ومبناها فأخرجها في عبارة واضحة وأسلوب فصيح سليم». ولعل هذه البروتوكولات بما أحدثت من دوي عند ترجمتها، بما كشفت ما توقعه الناس من نقائص الصهيونية وعيوبها الدفينة وتخطيطها الخبيث الماكر لعبت الدور الأكبر في شهرته، وبها عرف، أكثر من أي شيء آخر، في ذلك الوقت المبكر من شبابه.

أما في مجال اللغة فإن الدراسات التي أجراها الأستاذ التونسي تدل على مقدرة متقدمة في فقه اللغة، ولقد جمعها في الكتاب الذي صدر عن منشورات مجلة العربي وأسماه «لغتنا السمحة» واختيار العنوان على هذه الشاكلة يحمل توجهاً معيناً في تكوين الأستاذ التونسي وتوجهه ومنهجه اللغوي.. سبق أن أشرنا إليه أعلاه.

ومهما يكن من أمر فإن الأستاذ التونسي مرجع وحجة كبيرين في اللغة بصورة عامة وفقه اللغة بصورة خاصة، ولعل البعض يؤثر أن يعود إليه شخصياً أكثر مما يعود إلى القاموس.. ومما لا شك فيه أن كثيراً من الكتاب اعتمدوا على الأستاذ التونسي، عندما كانت تغمض لديهم الرؤية بالنسبة لقضية معينة في اللغة، فيريدون الاستبيان والتوثيق، وعندئذ كانوا يجدون ضالتهم لدى الأستاذ التونسي في كثير أو قليل.

وعلى وجه العموم، فإن من حظي بصحبة الأستاذ التونسي، وحضور مجالسه كان يحس أنه حجة في مجالات ثلاث، ذو باع طويل فيها: التاريخ الاسلامي والاسلاميات واللغة.

صورة النكسة كما تظهر في الكرنك لنجيب محفوظ

يعتبر رنجيب محفوظ في نظر كثير من النقاد والدارسين مؤرخاً اجتماعياً لتاريخ مصر الحديث والمعاصر. ورواية الكرنك نموذج معبر وممتاز على هذا التاريخ. وقد اخترناها، من أجل أن نقرأ فيها صورة النكسة، وأثار حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ بعد مرور عشرين سنة عليها.

يبدأ نجيب محفوظ روايته المشوقة هذه، بأن يضع لنا الاطار أو المسرح الذي تدور عليه، احداث الرواية ويتحرك عليه شخوصها وهو يختار لذلك مقهى هو مقهى الكرنك، الذي هو بمثابة رمز لتجمع معين، أو قل للشعب المصري في هذه الحقبة الزمنية من الستينات.. ففيه يلتقي الطالب والعامل والموظف والمتقاعد.. والتاجر وهكذا. وتديره امرأة تلتقي فيها سمات معينة: الجاذبية، والعفة، والنشاط، والحيوية والنضج والانسانية، مما قد يرمز أيضاً، لصفات الأم الحانية الراعية.. أو بعض صفاتها على الأقل!

على هذا المسرح يدير نجيب محفوظ، بما يملك من مستوى عال في التقنية، وبمقدار كبير من الذكاء في رسم الشخوص وأحداث الرواية، في ثلاثة محاور رئيسية.

المحور الأول: هو محور ما قبل النكسة، أو الهزيمة، والمحور الثاني: هو محور النكسة أو الهزيمة والمحور الثالث: هو ما بعد النكسة أو الهزيمة.

في المحور الأول يصور لنا الكاتب الشعبية الجارفة للثورة - ١٩٥٢ - وبخاصة لدى الشباب، الذين بالنسبة لهم «يبدأ التاريخ بالثورة مخلفاً وراءه جاهلية غامضة». والثورة - على علاتها - تمثل نقطة استقطاب كبيرة حتى للحزبيين القدماء، أو الحاضرين، وحتى في غرفة الاعتقال «يجهر الاقطاعيون والوفديون والشيوعيون بايمانهم بالثورة». ومع هذا فإن الثورة تحمل في كيانها بذور ضعفها وتناقضها.. فهناك بالرغم من الانجازات الكبيرة ما يسميه الكاتب استثناءات كثيرة أيضاً: تضحية بالحرية والقانون، وتحمل الآلام «في سبيل دولتنا العلمية الاشتراكية»، وهنالك أمراض، تدب بخفية في هذا الكيان «حشرات تنخر ذلك البناء الشامخ» وهناك أمراض «تلك القوى المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار» والالة الجهنمية التي لا تطحن إلا أصحاب الرأي والارادة، تحت شعار أو تبرير -

وليس مبرراً – يرد على لسان خالد صفوان، أحد شخوص الرواية، ومتولي الاشراف على جهاز التجسس والقمع، الذى يقول: «الخطأ له عذر أما التهاون فلا عذر له». ومن هذا الخطأ الذي له عذر – في نظره – تكون تصفية الشاب الأكاديمي حليم حمادة أثناء التعذيب في المعتقل، والاعتداء على عذرية زينب دياب الطالبة بالجامعة أيضاً.

هكذا يصور نجيب محفوظ الحالة في مصر، قبيل أن تهب رياح النكسة القاسية: ازدهار وروح معنوية عالية وشعور بالاعتزاز والكرامة والتفوق والرضا في ناحية، وطغيان على الانسان، وهدر للحريات، وتجاوز للقوانين، ومعاني الانسانية في ناحية أخرى: «وطن يتضخم، يصنع الاشياء من الابره حتى الصاروخ، يبشر باتجاه انساني عظيم، ولكن ما بال الانسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار في تفاهة بعوضة».. وتصور شخصية أخرى في الرواية، هذه الحالة أيضاً بقولها: «ترددت بين انبهار بالعظمة، ومقت للفزع والارهاب».

في المحور الثاني، تقع كما يقع الوباء، أو الكارثة، هنا تقع الواقعة.. ويقرع ناقوس كبير مؤذناً بحدث هائل.. وخراب عظيم:– «استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رؤوسنا» ويهتك الستار، كما يقول الكاتب، عن حقائق ضارية. من تمزق عربي وويل «حرباً طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين اسرائيل» حتى أن انكسار ٥ حزيران – يونيو، يستوى في التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصراً لقوم آخرين منهم أيضاً. وهنا تبدأ عملية اعادة نظر، بل اعادة تقييم شاملة، تظهر في المرحلة التي تلت النكسة، مما يدخلنا في المحور الثالث، أو المرحلة الثالثة لأحداث الرواية.

في هذا لمحور الثالث، يستيقظ الضمير المصري والعربي، ويبدأ حالة من الندم يصاحبها حالة بائسة من الانحلال، الذي يبدو خلاله بصيص من الأمل، والتفاؤل، ويتلو هذا كله محاولة للتنظير للمرحلة المقبلة والبحث عن حل.. أو مخرج فكري وايديولوجي من هذه المأساة.. أو النكبة..

فأحد أبطال الرواية يقول بصدق وحرقة: لم نصل إلى مثل هذه الحالة في عهد من العهود. ووسط جو مليء بالأشباح والأحاديث والحكايات والشائعات ينعقد الاجماع، كما يقول الكاتب بمرارة هائلة: على أننا كنا نعيش أكبر أكذوبة في حياتنا.. وينسحب هذا الجو، من التشاؤم والشعور بانعدام الوزن، إلى درجة الاحساس بالعدمية وممارسة ضروب الانحلال، حتى من قبل رموز رائعة في الرواية مثل امام الفوال الذي يمثل الطهر

قبل النكسة، وجمعة مساح الأحذية الرجل المكافح، اللذين ينصرفان عن ممارسة العمل الشريف ليصبحا من سقط المتاع وحثالة الناس المنحطين. كل هذه الأعمال والمواقف لم تكن سوى نتاج للتراجع النفسي، والشعور بالخذلان والضياع الذي أعقب تلك الضربة القاصمة: نكسة حزيران والشعور المؤلم بانهيار ذلك البنيان الشامخ.. حتى أن زينب دياب، احدى الشخوص المعبرة، والعذبة، في الرواية، والرامزة لكل التغيرات والتحولات، بين الأبيض والأسود، والطهر والانحلال، في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ مصر تقول: يخيل إلي أننا صرنا أمة من المنحرفين، تكاليف الحياة والهزيمة والقلق تفتت القيم.. ومع هذا، وكما يأتي النور بعد الظلام، والفكرة بعد السكرة، كما يقال، لا بد أن يستيقظ الضمير وتعود الروح للشعب المصري والعربي في جدلية نجيب محفوظ.. أو روايته المنسوجه بأحكام وبراعة، فالرواية أو القاص في هذه الرواية، والذي يجلس، أو يتخذ له متكئاً من بداية الرواية، في ركن من مقهى الكرنك، من أجل أن ينضم إلى موكب الحياة والناس والاشياء، ويرقب حركة التاريخ.. يسأل هذا السؤال المعبر «كلا أنها فترة كالوباء فيه تتجدد الحياة». وفي هذه الفترة تتحدث الرواية أيضاً عن ظاهرة ايجابية، عن ضوء في آخر النفق.. ألا وهو العمل الفدائي، الذي يشكل ظاهرة مشرقة، ووسيلة لاعادة الاعتبار والثقة إلى الذات العربية «يقولون – الفدائيون – لنا أن الانسان العربي يستطيع أن يكون معجزة في الشجاعة إذا شاء» وحتى الثورة، فإنه لا يتم التخلي عنها، فاسماعيل الشيخ الشاب الذي عانى من الاعتقال والتعذيب قبل النكسة، يقول بعدها: «على الاقل فإنني حريص على الثورة» وعندما يسأل الراوية زينب دياب: هل أيدت جماهير ٩ و ١٠ تقول: نعم، بقوة.. وفي لحظة ضعفها تقول بتهكم معبر: انها انما انحدرت كما انحدرت الثورة.. لأنها – بحسب منطقها – تظل ابنة للثورة تدور معها حيث تدور.. ولكنها، مع ذلك، سرعان ما تبرأ من هذا الضعف الذي نجم عن الزلزال الذي لم يكن متوقعاً.. وعندما يسألها الراوية كيف حصل الارتداد إلى العافية والعودة عن حالة الضعف. تجيب: سرعان ما حدث بثورة مضادة لقرف لا يزول.. فالضعف في حياة الشعوب، والذي ترمز لهم هذه الشخوص المعبرة في رواية نجيب محفوظ، ضعف مؤقت، عرض من أعراض مرض معين، سرعان ما ينقضي ويزول، كما تزول أعراض المرض بزواله.. لقد تعرض الشعب المصري والشعوب العربية لمرحلة تغيير وتطهير ذاتي عظيمة من خلال المعاناة والنضال والابتلاء والامتحان العظيمين، وما انتصارات الكرامة، والعبور بعد سنوات قليلة.. إلا تعبير صادق عن هذا التطهر والتسامي والتجاوز لما فات..

ادانة الجميع والبدائل

ولكن يظل هذا السؤال الذي يستحق الاجابة، قائماً: من هو المسؤول؟! وترد الاجابة في اطروحة الكاتب النهائية لتدين الجميع بلا تفريق. فهو يرد على من يقول: المجرم شخص والضحية شخص آخر، ليؤكد القول: «كلنا مجرمون وكلنا ضحايا، ومن لم يفهم ذلك، فلن يفهم شيئاً على الاطلاق».

ومهما يكن من أمر فإنه في المراحل التالية، في الرواية، في مرحلة التنوير، كما يطلق عليها عادة، لا بد من وضع الحلول، وفتح الأبواب والنوافذ للخروج من هذا المأزق التاريخي، ولأنه لا بد من الفكر، والفكر أولاً، كما يقول المثل الفرنسي وكما هي الحقيقة والواقع أيضاً، تبدأ الشخوص في الرواية في طرح البدائل والخيارات الفكرية.. وهي هنا كثيرة كثيرة، تمكنت ريشة الكاتب من رصدها وتسجيلها لنا باحاطة واقتدار كبيرين. حتى أن من عاصر هذه الفترة ليدهش من الاحاطة بكل هذه الأفكار والطروحات: فبينما يقول البعض: الحرب ولا سبيل إلا الحرب بديلاً، يرى البعض الآخر، العمل الفدائي والتركيز على الدفاع بديلاً آخر، وبينما يطرح آخرون: «الدين والدين هو كل شيء» يرد آخرون بالقول: ان الشيوعية، بل الديمقراطية والاشتراكية، والاشتراكية والديمقراطية هي البديل.. وينادي غير هؤلاء، وأولئك برفع الوصاية عن العرب ويرددون المطالبة بالحرية.

ومن المدهش، ان الضمير الشعبي الذي يفعل الأعاجيب في البحث عن الخلاص، من خلال عملية مضنية في تقييم الأشياء، إلى درجة جلد الذات أحياناً كثيرة! يتسامى على نفسه! ويغفر لجلاده! ويكاد يبرئ خالد صفوان رمز القمع الشهير!! فالرواية تقول: « بل وجد من يدافع عنه - خالد صفوان - فيقول أنه ليس مسؤولاً عن جرائمه».. اطروحة أخرى أو أحجية أخرى يوردها الكاتب واصفاً بصدق التحولات والتجليات المتضاربة التي مر بها الشعب في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه.

الرواية واسدال الستار

ويسدل الستار على احداث هذه الرواية بحوار معبر بين الراوية وشاب في عشريناته يمثل الجيل الجديد الجيل الصاعد، الجيل الذي سيصنع التاريخ، ويعيد التوازن للأشياء.. والحوار لا يحتاج إلى تعليق أو تفسير فهو يتحدث عن نفسه:

- تحت أي صفة يمكن أن أصنفك. فقال بضجر:
- اللعنة على الصفات جميعاً.
- من حديثك اقتنعت أنك تحترم الدين.
- ذلك حق
- فهمت أيضاً أنك تحترم اليسارية.
- ذلك حق.
- إذن من أنت.
- أريد أن أكون من أنا بلا زيادة أو نقصان.
- أهو شوق للأصالة.
- ربما.
- أيعني هذا الرجوع إلى التراث.
- كلا.
- أيعني أيضاً الاتجاه إلى الحضارة الغربية.
- كلا.
- إذن فأين توجد الاصالة؟
- فأشار إلى صدره وقال: هنا..

obeikandl.com

قراءة في «صدمة الحجارة»★

للدكتور المقالح نظرية في شعر الانتفاضة.. مقارناً بشعر حرب حزيران (١٩٦٧). فبينما تشكل الانتفاضة بداية جديدة وكافية لوضع الشاعر ومن ثم لوضع الشعر، في حالة انبعاثية قادرة على تجاوز الخلل والاستعداد لارتياد آفاق جديدة تستوعب وهج التغير الراهن وحيويته وغناه.. فإن شعراء نكسة (١٩٦٧) كانت قصائدهم تعبيراً وصفياً ساذجاً عن أثر المفاجأة وليس عن أثر الحدث الكبير.

استشهادات الدكتور المقالح تسوق أدلة متعددة على نظريته عن شعر الانتفاضة وحيويته.. فهذا حاتم الصكر، وشعره من أوائل الاستجابات الشعرية للانتفاضة، يقول من قصيدته «حجر الانتفاضة» هذا المقطع الذي يفيض بالغنائية.. والاستخدام البارع للاسطورة.

كان الرهان على حجر

أن يطلع الطوفان من طفل رأى

ملكاً بلا ثوب

فصاح.. وأشعل النار في غاب

تيبس

واندثر

كان الرهان على حجر

فاضت به الأرحام دهراً في المنافي

ثم وارته التراب

★ تأليف الدكتور: عبد العزيز المقالح.

فأزاح شاهده.. وسار يحرر

الأعمى

ويمنحه البصر

أما سعدي يوسف – الشاعر السياسي والسياسي الشاعر كما يصفه الدكتور المقالح – فهو يضع يده دائماً على أهم أسرار القصيدة السياسية أو النضالية فيقول عن الانتفاضة:

رايات يحيى ثوبك المنخوب

بالطلقات

يحيى في المخيم

يرفع الأرض التي احتقنت

ويدحوها ويبرأها ويقذفها

بوجه النار

يحيى ينبت الأحجار

يجعل من سواعدنا مقاليع النبوة

من أصابعنا دم الثوار

والشاعر ممدوح عدوان يتحدث عن الانتفاضة ضمن حالتين اثنتين: الحالة الأولى مفردة جامدة:

هذا زمان من حجر

والماء في الأنهار قد أضحى حجر

أما الحالة الثانية فهي مفردة حية تتحرك فيها ومعها عزة الانسان وكرامته:

ان شئت أن تحيا عزيزاً

كن حجر

obeikandl.com

واحمل حجر

واضرب حجر

لكن القصيدة التي تضع الشعر في مواجهة الخرافة، القصيدة التي أثارت ضغينة المحتلين الاسرائيليين وحقد نقادهم، وجعلت اسحق شامير يقول في الكنيست بحقد مرير: «أنها قصيدة خرقاء، لشاعر مشبوه!» هي قصيدة محمود درويش «عابرون في كلام عابر» وهي من القصائد التي احتضنت الانتفاضة في أيامها الاولى، وهي تشكل صورة من أخطر الصور لشعر المقاومة في اللغة العربية: وضوحها الغامض، وبساطتها التعبيرية... وهي تريد أن تقول ببساطة، أن شعبنا تحرك وبلغ درجة الثورة الشاملة:

اخرجوا من أرضنا

من برنا.. من بحرنا

من قمحنا.. من ملحنا.. من جرحنا

من كل شيء، واخرجوا

من ذكريات الذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة..

أما قصيدة سميح القاسم عن الانتفاضة، فهي تتسم بما تتسم به قصائد سميح القاسم عادة الغنائية مع البنية الايقاعية العالية... فهي تختزن كميات هائلة من الانفعال ولذلك ترفض ما يسمى الكثافة والغموض، ويهمها أن تبقى قصيدة نضالية تعبر عن شيء معلوم، وعن قضية محددة واضحة:

تقدموا تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض فوقكم جهنم

تقدموا

يموت منا الطفل والشيخ

ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى

ولا تستسلم

تقدموا

بنقالات جندكم

وراجمات حقدكم

وهددوا

وشردوا

ويتموا

وهدموا

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاء مبرم

وعندما يتناول الدكتور مقالح قصيدة «استسقاء» للشاعر أحمد دحبور بالنقد، فإنه يعتبرها من أجمل القصائد الغنائية في الشعر العربي الحديث، بما يترقرق بين سطورها من ايقاع تشكلت عناصره من التركيب الصوتي للفظ والوزن والقافية: الحجارة المطر اليومي يهطل على رؤوس الأعداء التي تشتاق إلى مطر آخر:

يا مطر

لك هذا العطش الأخاذ بيت

فلماذا لا تفيء

obeikandl.com

نحن لم نبخل علينا يا مطر
بل جعلنا حجر الأرض ربيعاً في
يدينا

فاختطف حبسك
واستكشف سحاباتك
ولتأت إلينا

هو هذا فصل الحجر
طار في الأفق الحجر
شع في النور حجر

نحن لم نستقبل الصيف كسالى
فتعال

وتعال
وتشبه يا مطر
بالحجر

أما الشاعر عز الدين مناصرة فتشكل ذكريات الطفولة دوراً مركزياً في تجربته الشعرية فهو عندما يتحدث عن الطفولة يتحدث عنها بسعادة رغم أنه يكون قد تحدث عن عذابات الطفولة! فهو عندما يقول:

obeikandl.com

أحاول أن أمسك البحر من

خصره القرمزي

أراه، كذلك، لكنه يشتهي أن

يكون ربيعاً

لكي يعجب الآخرين

بطيء بريدك يا وطني والرسائل

لا تصل العاشقين

وكانت نجوم النوارس، تملؤني

غبطة والنجوم

مسافرة قرب شمس الأصيل

يأتي رداً غير مباشر على من يقول للشاعر حدثنا عن الوطن بعد انتفاضته ، وحدثنا عن طفولتك فيه في اطار الحديث عن الأطفال الذين يتولون الآن مهمات الدفاع عن هذا الوطن..

ولا تكتمل صورة الحجر وأبعاد مآثره المادية والمعنوية على الانتفاضة أولاً، وعلى الأمة العربية ثانياً، ما لم نجتزئ السطور التالية من قصيدة الشاعر فيصل خليل، ويصفه الدكتور مقالح بأنه من ابدع مقاطع القصيدة إذ يتحول الشاعر نفسه إلى حجر، يهوي ويعدو في عيون الزحام، التي ما يكاد يستقر في سوادها حتى تنطبق وتنام، لماذا؟ ربما كان المعنى في بطن الحجر!

وأسير مزدحماً؟ بآخر صرخة..

وحدي

ومنفرداً فيمحوني الزحام

أعلو إليه حمامة.. تهوي

وأعدو في سواد عيونه حجراً

فيخبر أنني أهوي

وأني في سواد عيونه حجر

ويطبقها!

ينام!

ويختتم الناقد الدكتور المقالح دراسته عن شعر الانتفاضة بهذا التقييم الذي يقول فيه: أن شعر الانتفاضة الجدير بالاهتمام والانتساب إلى الانتفاضة هو هذا الذي يلتقي شيء من سحره بشيء من سحر الحجر، أو بالأصح من سحر الانتفاضة، لأن سحر الأشياء هو القاسم المشترك فيما بينها، ولا شك أن دراسة قصائد الانتفاضة واستخلاص خصائصها الفنية من خلال هذا المنظور سيوفران للقاريء قاعدة علمية دقيقة وجذرية للتفريق بين الشعر الذي يتجاوب مع توقعاتنا ويبعث الرعشة في النفوس وبين النظم الذي لا معنى له ولا تأثير.

وبعد، فإن كتاب «صدمة الانتفاضة» يظل - فيما نعلم - من الكتب القليلة النقدية التي حاولت أن تقترب من شعر الانتفاضة النضالي، وتعالجه بهذه النظرة الموضوعية، وتكتشف فيه شيئاً غير قليل من الأصالة التي ميزته نوعياً وفنياً عما سبقه من شعر المواقف الوطنية والقومية مثل حرب حزيران، وجعلته يرقى بالشعر العربي النضالي إلى آفاق جديدة تتناغم مع أصالة الانتفاضة وتفردها وتميزها في تاريخنا العربي المعاصر، يقول الدكتور المقالح: «لقد اختار الشاعر العربي - منذ هزيمة حزيران - اسلوب الخطابة والوعظ والضجيج، وجعلت القصيدة منذ ذلك الحين تسير في مسارب موحشة لا تفضي إلا إلى مصير مجهول وفاجع وموغل في تحقير الشعر والذات، وكانت الانتفاضة بداية جديدة وكافية لوضع الشاعر، ومن ثم لوضع الشعر، في حالة انبعاثية قادرة على تجاوز الخلل والاستعداد لاجتياب آفاق جديدة تستوعب وهج التغير الراهن وحيويته وغناه، وكان في مقدورها - أي الانتفاضة - تفجير مكامن الكتابة الابداعية لدى الانسان العربي رجلاً أو امرأة. ولم يكن بعض هذا الشعر الذي انبثق عن التفجير القومي - الانساني، وأجاد التعبير عنه دفاعاً عن الحق الفلسطيني بقدر ما كان دفاعاً عن الشعر ذاته، بعد أن أصابته الهزائم المتلاحقة بالانحدار والضجيج الخامد».

الكاتب الأمريكي شاول بلو والدس الصهيوني

الكاتب الروائي الأمريكي شاول بلو ذو أصل يهودي.. وهو حائز على جائزة نوبل للآداب. ومن أشهر رواياته رواية (هرتزوغ). ومن مؤلفاته – غير الروائية – كتاب «إلى القدس والعودة منها» وهو يعتقد فيه أنه ربما كانت فلسطين، بالنظر لتواصل المقاومة فيها، منذ قيام الكيان الصهيوني على أرضها مركز تجميع يهود العالم تمهيداً للقضاء عليهم، في بؤرة التجمع هذه!

صدر مؤخراً لهذا الروائي ذي الشهرة الواسعة في الولايات المتحدة، رواية بعنوان «الأكثر يموتون من وجع القلب». وهو في هذه الرواية يتحدث عما يسميه انسان ما بعد التاريخ، في امريكا والعالم، ويقول أن هنالك صراعاً كبيراً بين الانسان والتكنولوجيا.. ولكن مشكلة الانسان الأساسية تظل انسانية وليست تكنولوجية، بدليل أن العدد الأكبر من الناس يموتون بسبب أمراض القلب، وليس بسبب الذرة والاشعاع الذري، وهو يذهب إلى أن مصير الفن والأدب، في هذا المجتمع المعاصر العاصف أصبح في خطر فالغلبة للمادة وتيارها الصاخب وليس للانسانيات، وعلى هذا فإن البحث عن الالهام والوحي في المجتمع الحالي ضرب من المحال.

على أن كتابات بلو، وهذا ما يهمنا هنا، يشتم منها رائحة العنصرية والانحياز لليهودية ان لم يكن للصهيونية، ففي روايته التي نحن بصددها الشخصية الأولى أو البطل أمريكي من أصل يهودي، ومهاجر من روسيا، وقد جسد الكاتب في هذه الشخصية المركزية في الرواية كل صفات السوبرمان: فهو أكاديمي من الطراز الممتاز، يستغرقه وطوال الوقت، البحث العلمي، البحث عن الحقيقة المجردة من خلال علم النبات، ونباتاته التي يجري عليها اختباراته، تربطه بها صلات وشيجة، بل أنها فردوسه، التي يجد عندها راحته، وتحقق بها شخصيته ويصل معها إلى حالة من النشوة والسرور الوجودي. وهذا الأستاذ الذي يكرر الكاتب، باستمرار صفته اليهودية، له سحر خاص، نابع من تضاريس خاصة لشخصيته الموحية الملهمة، وهو مركز استقطاب عالمي، يدعى إلى المؤتمرات ويتسابق لابداء الاعجاب به الباحثون والطلبة والعلماء في كل مكان: بايجاز أنه يتمتع بكل ما يتمتع به أستاذ نابغ، ذو مرجعية أكاديمية كبيرة، يستمدها من جامعته المشهورة، والتي توفر له كل الامتيازات والتسهيلات البحثية التي تتوفر لأمثاله من

أقطاب الأساتذة الأفذاذ، الذين يقع على أكتافهم تقدم البشرية، ووصولها بالعلم إلى حدود بعيدة بعيدة.

وخلال صفحات الرواية الطويلة تتكرر الدعوة إلى أن يكون هذا العالم هو قدوة الناس أجمعين، بالنظر إلى أنه حقق ذاته من خلال ايجاد منعطف خاص به.. بل أنه يدعو من أجل الانقاذ والخلاص الأكبر أن يكون لكل انسان في الوجود منطقه الخاص به، من أجل تحرير الذات.

إذن تمكن الكاتب من وضع شخصية يهودية في مكان سام تتعشق البشرية الوصول إليه. ولم يكتف بذلك بل راح يبث أفكاره الصهيونية من خلال اسقاطات معينة مباشرة وغير مباشرة فهو مثلاً:

- يتهم المجتمع الفرنسي بأنه لا يزال، حتى وقتنا الراهن، يعاني من عصاب اللاسامية، وأنه ومنذ محاكمة دريفوس، الشخصية اليهودية التي اتهمت بالخيانة، فإنه لم يشف من نزعته، اللاانسانية، اللاسامية، بالرغم من عدم ادانة دريفوس وثبوت براءته!.

- وهنالك اشارات واضحة إلى الجيتو اليهودي، وبالذات جيتو وارسو، مما يضعك في أجواء الحرب العالية الثانية، ويذكرك بنزعة الأقلية والانعزالية التي يعاني منها كل يهودي، وبكل ما تعنيه هذه النزعة من شعور بالبؤس والاضطهاد والكراهية إلى درجة الحقد على الشعوب الأخرى: الغوييم. فعلى الرغم من أن الكاتب يشيد بالمجتمع الأمريكي المفتوح، إلا أنك تحس أنه لا يزال يحس بنفسية الجيتو، التي على ما يظهر ، هي قدر كل يهودي. وعلى الرغم من أن اليهود في الولايات المتحدة يشكلون مجتمع النخبة إلا أنهم على المستوى السيكولوجي على الاقل، لا يزال تعيش في عقولهم وحنايا جوارحهم روحية اليهودي المنبوذ أو شبه المنبوذ!.

- وحديث الكاتب عن الجيتو يقوده إلى الحديث عن المجازر البشرية خلال الحرب العالمية الثانية، وبالذات تلك التي لحقت باليهود: الهولاكوست أكثر من هذا فهو يتحدث عن عقلية خاصة هي عقلية الهولاكوست عند النازيين ومن شابههم، هدفها الأكبر هو الانتقام من اليهود وحرقهم على السفود، بسبب من النزعة العرقية الآرية، كما جرى الحال بالنسبة لآلاف الغجر في اوروبا في الحرب العالمية الثانية.

- وهو لا يتوانى عن التعريض ببعض الزعماء العرب (الرئيس القذافي مثلاً) عندما يقرن

الحديث عنهم، بالحديث عن شخصيات معينة مثل ايملدا زوجة فرديناند ماركوس ديكتاتور الفيلبين السابق! ومثل فالدهايم الذي تتهمه الدوائر الصهيونية بالضلوع في تعذيب اليهود خلال الحرب العالمية الثانية. بالنظر لصلاته بالحركة النازية.

- كما لا ينسى أن يصم العرب بوصمة الارهاب الذي تقوم به الجماعات العربية الاسلامية في بيروت وباريس وكل مكان (كذا)، ولا يستثني من هؤلاء سواقي مدينة باريس، وغيرهم من السواقين من أصل عربي في مدن الغرب.

هذه أمثلة على الاسقاطات ذات الطابع الصهيوني العنصري الانعزالي: غاية الأمر، أن هذا الكاتب الأمريكي الذي هو من أصل يهودي، يوظف هذا المنبر السامي منبر الفن توظيفاً غير مقبول. فتراه وهو يناقش المشاكل التي تعاني منها البشرية والتي تلقى العطف والمشاركة الوجدانية من كل قارئ، لا ينسى أن يلون كتاباته بهذا اللون الذي يتعارض مع الانسانية الحقة في أعماقها ويتنكر للعدالة والاخاء البشري الذي دعا له كل كاتب أراد أن يتجاوز حدوده المحلية ليخاطب البشرية جمعاء، ليفجر فيها كل معاني الخير والحق والجمال وبهذا فهو يسقط سقوطاً مقيتاً في حمأة التعصب والعنصرية.. وما درى أنه بهذا ينسف هذا الأثر الفني الذي لو سلم من هذه الآفات، لكان ربما وصل إلى الانسانية من أقرب مكان.. فالفن الجيد هو الذي يتبنى قضايا الانسان أي انسان في كل مكان وليس فئة خاصة من بني البشر. ان شاول بلو من حيث يعلم ولا يعلم وقع ضحية عقدة شعب النخبة، الشعب المختار، كما وقعت النازية ضحية عقدة النزعة العرقية.. وهذا ما جعل كتابه يصاب بداء لا براء منه.. تماماً كما هي النازية ذات النزعة الذاتية العدوانية.